



شريف شوقي

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هـذا الزمن الذى طغت فيـه الأطماع المـادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهـذا النـوع من الحب .. نحتـاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة : دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب.

المؤلف

١ — حب .. وتضحية ....

انطلقت أتجاوز بسيارتى كل السيارات الأخرى ، التى تعترض طريقى ، كما لو كنت مجنونا ، غير عابئ بإشارات المرور ، ولا بتلك الاحتجاجات ، التى أخذ أصحـاب السيارات يعبرون عنها بأبواق سياراتهم ..

وقتها لم اكن أسمع شيئا ، ولم اكن أعى مايدور حولى مطلقًا ؛ فقد تملكتنى فكرة واحدة فقط ، سيطرت على عقلى . ونزعت عنه كل ما عداها من أفكار أخرى ، وهى أنه يجب ألا أدعها ترحل ، دون أن أودعها ، وعلى الرغم من أنها كتبت فى قصاصاتها ، التى تركتها لى اليوم ، أنها فضلت الرحيل دون وداع ، لما سينطوى عليه الوداع من قسوة ، لاقبل لها بتحملها ، وعلى الرغم من أننى لم اكن أقل عنها خشية . وإشفاقا على نفسى ، من لحظات الوداع القاسية ، التى ستعنى أننى لن أراها بعد اليوم ، إلا أننى لم أستطع تصور أن ينتهى كل ما كان بيننا هكذا ، دون حتى كلمة وداع ، ودون أن أراها للمرة الأخيرة ..

وما أن أوقفت سيارتى أمام باب المطار ، حتى غادرتها مسرعا ، دون أن أعبأ حتى بالتأكد من إغلاق بابها ، واندفعت مسرعا داخل صالة المطار ، وعيناى الزائغتان تبحثان عنها . وسط جموع المسافرين ، ولكننى لم أعثر عليها ، فتقدمت من ضابط الجوازات أسأله عنها ، ولكن قبل أن أفعل لمحتها عيناى ، فى صالة الانتظار الداخلية ، وقد جلست على أحد المقاعد

كانت شاردة ، وقد ظلّلت سحابة من الأحزان وجهها الجميل ، وإن لم تنقص أبدا من جماله وفتنته ..

ذلك الوجه الذى عرفت معه معنى الحب الحقيقى ، وتلك الفتنة التى وقفت أمامها مبهورًا ذات يوم ..

ووجدتنى أصرخ مناديًا إياها :

— (وفاء) .. (وفاء) .

تحوّلت إلىّ بوجهها الحزين ، ثم نظرت إلىّ غير مصدّقة . وسرعان ماتحوّلت قسمات وجهها إلى الفرح الشديد ..

لقد بدت فى هذه اللحظة كما لو كانت طفلة صغيرة شاردة ، عثرت على والديها ، بعد فترة طويلة من الضياع ، فغادرت مقعدها ، لتندفع نحو الحاجز الحديدى ، الذى يفصل بينى وبينها ، واستطعت أن ألمح ذلك الاحمرار فى عينيها ، الذى

يدلّ على أنها عانت ساعات طويلة من السهد والبكاء ، أما وجنتاها فقد تبدلتا سريعًا حينما رأتنى . فبعد أن كان الشحوب والاصفرار يكسوانها ، وجدتهما وقد تورّدتا ، كما لو كان ظهورى المفاجئ قد بعث فيهما رحيق الحياة من جديد ، ووجدتها تهمس بذلك الصوت الحنون ، الذى طالما أحببته ، قائلة :

— (خالد) .. كم تمنيت أن أراك قبل رحيلى .

قلت لها ، وفى صوتى نبرة ألم :

— ومع ذلك أردت أن تسافرى ، دون حتى كلمة وداع .

تطلّعت إلىّ بعينيها الحمراوين ، فى نظرة لن أنساها ماحييت ، وهى تقول فى ألم :

— ألا ترى ما فى الكلمة من قسوة ؟ .. الوداع .. يالها من كلمة مروعة ! لقد قسوت على نفسى كثيرًا ، حتى أحول بينى وبين حنينى لرؤياك ، ولكننى كنت أعرف أن ذلك سيكون أخف وطأة ، من لحظة كهذه .

قلت بأسى :

— (وفاء) .. إننى ....

ولكنها وضعت أصابعها على شفتىّ ، قائلة :

ـــ لا تقل شيئًا .. ولا تعتذر عن شيء ، لقد كان الحب بيننا كبيرًا رائعًا ، ولكننى أعرف جيدًا أن فى حياة الإنسان أشياء أخرى ، قد تكون أكثر أهمية وقيمة ، ولقد عشت بالقرب منك روعة الحب وسعادته ، وتذوّقت معك أحاسيس لم أعرف لها مثيلًا فى حياتى ، وسأظل أفتقدها ما تبقى لى من حياتى المقبلة ، لكن يبدو أننا نسينا فى غمرة سعادتنا أن للقدر ترتيباته ، وللحب تضحياته .. لقد منحنا القدر كل ما اشتهيناه ، من مشاعر وأحاسيس رائعة ، وعلينا الآن أن نسدِّد ثمن هذه السعادة ، وأن نتقبل ما فرضته علينا من تضحية .

قلت وأنا أتناول يديها بين يدىّ :

ـــ ألا يوجد حل آخر ، غير سفرك هذا ؟

وفاء :

ـــ غير هذا لن نجنى سوى الشقاء والعذاب ، وقد لا يقتصر الأمر على شقاء أنفسنا ، بل سنُشقى الآخرين معنا ، ولن أرضى لحبنا أن يكون مصدرًا لشقاء أحد .

خالد :

ـــ أليس فى افتراقنا شيء من الشقاء والحرمان ؟

وفاء :

ـــ سيكون هذا أهون لدىّ من أن ندع حبنا يقودنا إلى الأنانية ، والبحث عن السعادة ، على حساب أقرب الناس إلينا .. إن زوجتك وابنتك بحاجة إليك يا (خالد) .. بحاجة إلى حبك ورعايتك واهتمامك .

خالد :

ـــ ولكننى لم أقل إننى سأقصّر فى أداء واجبى نحوهما وحبى لك لن يحول بينى وبين حبهما ورعايتهما .

وفاء :

ـــ لن تكون خالصًا لهما بقلبك ومشاعرك ، وأية زوجة بحاجة إلى أن يكون زوجها خالصًا لها وحدها ، وكذلك الابنة بحاجة إلى أن تنعم بحب أبيها وأمها ، خالصًا لها وحدها .. ألا تدرى أية مأساة يمكن أن تتخلف ، لو اكتشفت إحداهما حقيقة حبنا ذات يوم ؟ .. إن حبى لك لم يكن أنانيًا ابدًا يا (خالد) ، ولم أكن لأسمح له أن يكون أنانيًا . وبقدر ما أحبك ، بقدر ما أحرص على سعادتك وسعادة المحيطين بك .

خالد :

ـــ سعادتى أن تكونى إلى جوارى .. مجرّد أن أشعر بأنك موجودة فى نفس المدينة ، التى أعيش بها ، سيمنحنى قدرًا من السعادة ، حتى ولو لم نلتق .

وفاء :

ـــ لن نخدع أنفسنا يا (خالد) ، فأنت تعرف جيدًا أننا لن نقوى على كبت مشاعرنا ، ومقاومة حنين قلبينا .. لقد عقدت العزم على أن أسافر إلى (كندا) ، دون عودة ، ودون أن أبوح لك حتى بعنوانى .. سيكون هذا أفضل لنا ، ولكن عليك أن تثق دائمًا أنه إذا كان جسدانا سيفترقان ؛ فإن قلبى سيبقى دائمًا ملكًا خالصًا لك .

كنت أعرف أن ما قالته صحيح ، وأن الأمور لن تستقيم لنا أبدًا ، ما دمنا نملك تلك المشاعر الجارفة القوية ، التى تكاد تصرخ بحبنا ، وتعلنه على رءوس الأشهاد .. لقد كان حبنا أقوى من أن نخفيه ، أو نطويه فى أعماقنا كذكرى ، لا صلة لها بحاضرنا ، ومهما قيل عن أننا شخصان ناضجان متزنان ، يمكنهما التحكّم فى عاطفتهما ، والتعامل معها وفقًا لأحكام المنطق والواقع ، وليس باندفاعة المراهقة وسراب الخيال ، فلا أعتقد أن مثل هذه الكلمات البليغة كانت ستصمد لحظة واحدة ،

أمام تلك العاطفة الكاسحة ، التى اجتاحت قلبينا ، والتى لا تُفرِّق ، بين سنوات المراهقة وسنوات النضج ، ولا تعترف بمنطق أو واقع ؛ فحب كبير ، كالذى جمع بينى وبين (وفاء) ، كان لا بد أن يعلن عن نفسه دائمًا ، فى كل لحظة ، وكان سيصرفنا عمن هم حولنا ، وبحاجة إلينا ، كما لا بد أنهم كانوا سيلاحظونه ويفهمونه بشكل غير حقيقى ، وحتى لو تبيّنوا حقيقة هذا الحب الكبير ، فلم يكن هذا ليعنى بالنسبة لهم سوى شىء واحد ، وهو أن جزءًا كبيرًا من نفسى وعقلى وكيانى ، قد أصبح ملكًا لأخرى ؛ لذا كان من الأفضل لكلينا أن نفترق ، حتى تعود الأمور فتستقيم ، بالنسبة لى واللتين سجدت من أجلهما لله ، حمدًا وشكرًا على عودتهما إلىّ ، بعد أن فقدت الأمل فى رؤيتهما مرة أخرى ..

نعم كان رحيلها سيحلّ المشكلة بالنسبة للجميع ، على الأقل جزئيًا ..

كان هذا هو ما يحدثنى به عقل الرجل الناضج ، رجل الأعمال الذى شهد له الجميع برجاحة العقل واتزان العاطفة ، والحكم الصحيح على الأمور ..

ولكن قلبى العاشق كان يختلف تمامًا ، فيما يحاول أن يقنعه به هذا العقل .

لم يكن يعرف سوى شيء واحد ، وهو أنه لا يقبل أن يُحرم منها أبدا ، بعد أن أحبّها كل هذا الحب ، ومهما كانت النتائج .

وبدأت أشفق على نفسى وقلبى وعينى ، من أن تُحرم رؤياها ، وفجأة سمعت صوت مذيع المطار الداخلى ، وهو يعلن ضرورة توجّه المسافرين إلى أرض المطار ، استعدادًا لإقلاع الطائرة المتجهة إلى (كندا) ، ووجدتنى أنتفض بشدة ، وقد ارتسمت ملامح الذعر على وجهى ، وكأنما جاء هذا التنبيه ليهزنى بعنفٍ ، على الحقيقة التى لم يعد هناك مفر منها ، وهى أن لحظة الفراق قد حانت ..

لقد بدا الأمر لى فجأة .. كما لو كان كابوسًا مزعجًا ، فعما قليل ستقلع تلك الطائرة ، وبداخلها (وفاء) ، الإنسانة الوحيدة التى أحببتها حبًا لم أعرفه طوال سنوات عمرى ، التى تعدّت الأربعين ، وذلك يعنى أننا قد افترقنا عن بعضنا البعض ، ولم نعد نعرف ما إذا كنا سنلتقى مرة أخرى أم لا ..

هل من المعقول ، بعد كل هذا الحب الكبير ، أن ينتهى الأمر بيننا بهذه البساطة ؟ ..

هل يمكن أن أدع هذه الطائرة تأخذ منى سعادتى ، وتقلع

بجزء من نفسى ، دون أن أناضل فى سبيل الإبقاء عليها ؟ ..

وجدتنى أتشبث بيديها ، عبر الحاجز الحديدى ، الذى يفصل بيننا ، قائلا بصوت يموج بالرجاء :

ـ (وفاء) .. لا ترحلى .

تشابكت أصابعنا ، وعيناها تختنق بالدموع ، وهى تقول :

ـ لا مناص من الرحيل .

وأخذت أصابعنا تتباعد ، وقد عادت كلماتها تلحّ على عقلى : « لقد منحنا القدر كل ما اشتهيناه ، من مشاعر وأحاسيس رائعة ، وعلينا الآن أن نسدد ثمن هذه السعادة ، وأن نتقبل ما فرضه علينا القدر من تضحيات » .

كانت أمامى تتراجع بظهرها ، والعبرات تتساقط على وجنتيها .. (وفاء) .. حبيبتى .. أجمل شيء مر فى حياتى ، منذ أن وعيت هذه الحياة ..

ولم أعد مستعدًا لتقبّل ذلك المنطق ، وتلك الكلمات التى حاولت أن تقنعنى بها ، كما لم أعد مستعدًا لسماع صوت العقل فى هذه اللحظة ، ووجدتنى أصرخ مناديًا :

ـ (وفاء) .. (وفاء) .

وجاء صوتها من بعيد ضعيفًا ، واهنًا ، وهى تقول :

— وداعًا يا (خالد) .. وداعًا يا حبيبى ..

وهكذا أقلعت الطائرة ..

حملتِ معها جزءًا من نفسى وكيانى إلى المجهول الذى لن أعرفه ..

وكان علىَّ أن أتقبل حقيقة أننا قد افترقنا ، وأننى لن أعود فتداعبنى تلك الأحاسيس الجميلة فى الليل قبل نومى ، كلما تذكَّرت كيف أمضيت معها يومى ، وكيف سأستقبل معها غدى ، بعدها ستتساوى الأيام ، وسيحل الواجب محل الحب ، وسيتعيَّن علىَّ أن أعمل على إسعاد ابنتى وزوجتى ، والسهر على راحتهما ، وتأمين حياتهما المقبلة ، بعد أن فقدت سعادتى ، وودَّعت حبى ..

وتوقَّفت بسيارتى أمام منزلى برهة من الوقت ، وأنا أتطلَّع إلى نوافذه المضاءة ، ثم تناولت اللفافة الكبيرة ، الموضوعة فى المقعد الخلفى ، وغادرت السيارة ، وما أن بدأت أخطو نحو أولى درجات السلم الصغير ، المؤدى إلى مدخل فيلتى ، حتى وجدت الباب يُفتح بغتة ، ليطل من خلفه وجه ابنتى الحبيبة ، وهى تهرع إلىَّ من خلفه قائلة :

— أبى الحبيب .. لقد أوحشتنى للغاية ..

وأحتضنتنى بشدة ، كما لو كانت تخشى أن تفقدنى ، قائلة :

— لماذا تأخرت كل هذا الوقت ؟

قبلت جبينها ، وأنا أقدّم إليها اللفافة ، التى أحضرتها ، قائلًا :

— من أجل أن أحضر لابنتى الحبيبة الثوب الذى أعجبها .

صرخت وهى تختطف اللفافة من يدى بلهفة :

— معقول ؟! هل أحضرت لى ذلك الثوب الذى رأيناه فى واجهة المعرض أمس ؟

قلت لها بحنان ، وأنا أمسح بيدى على شعرها الأسود الناعم :

— وهل كان من الممكن ألا أشتريه ، بعد أن رأيت بريق الإعجاب يطل من عينيك ، وأنت تتأملينه فى تلك الواجهة ؟

تطلّعت إلىّ (حنان) بعينين تعبران عن امتنانها ، قائلة :

— ولكنى لم أطلب منك شراءه .

أجبتها مبتسمًا :

— ولم أكن لأنتظر حتى تطلبيه .. كان يكفينى أن أرى تلك النظرة فى عينيك ؛ لأهرع لشرائه على الفور .

عادت تحتضننى بشدة ، قائلة :

ـ أنت أعظم أب فى العالم .

ومن خلفها وجدت زوجتى واقفة عند الباب ، بابتسامتها الحنون الهادئة ، التى تتناسق مع ملامح وجهها ، الذى يحمل نفس الهدوء والحنان ، وهى تستقبلنى قائلة :

ـ لقد قلقت من أجل تأخيرك ، وعندما اتصلت بمكتبك أخبرونى أنك غادرته ، منذ ثلاث ساعات مضت .

تناولت كفيها بين يدىَّ ، وأنا أقبّلها فى وجنتها ، قائلاً :

ـ لقد أضطرتنى الظروف لأداء بعض الأعمال ، وإحضار ذلك الثوب من أجل (حنان) .

تعلّقت بذراعى ، وهى تقودنى إلى الداخل ، بعد أن سبقتنا ابنتنا فى الدخول ، وحل رباط اللفافة ، التى تحتوى على الثوب ، قائلة :

ـ حمدًا لله على سلامتك .

وفى خلال دقائق ، كانت (حنان) قد ارتدت الثوب ، ووقفت تستعرضه أمامنا فى أنوثة مبكّرة ، قائلة لأمها :

ـ هل رأيت كم هو رائع يا أمى ؟

والتفتت إلىَّ زوجتى ، قائلة :

ـ إنك تدلّل هذه الفتاة بأكثر مما يجب .

أحطت كتفيها بذراعىّ ، قائلاً :

ـ ليتنى أستطيع تعويضكما عن كل ماعانيتماه ، خلال الأعوام الماضية .. صدقينى يا (سلوى) .. لقد أصبح هدفى الوحيد فى هذه الدنيا ، هو العمل على إسعادكما .

وردَّت علىَّ برقتها المعهودة :

ـ سعادتنا الحقيقية هى فى وجودنا إلى جوارك يا (خالد) . ونظرت إلىَّ فجأة بقلق ، قائلة :

ـ لماذا تبدو عيناك مرهقتين ، حمراوين هكذا ؟

تنبّهت إلى أن محاولتى مغالبة تلك الدموع ، التى احتبستها فى عينىّ ، إثر رحيل (وفاء) ، ثم استسلامى لانسياب تلك الدموع فوق وجنتىَّ ، قد تركت آثارها فى عينىَّ ، وقلت لها سريعًا ، محاولاً اصطناع ابتسامة باهتة :

ـ هذا من أثر العمل ، والقراءة لساعات طويلة فى بعض الملفات .

قالت بحنان :

ـ يجب أن تعتنى بصحتك جيدًا يا (خالد) ، فأنت ترهق نفسك كثيرًا فى العمل .

أردت تغيير الموضوع ، فانتهزت فرصة صعود (حنان)

إلى غرفتها ، ووضعت يدى فى جيبى ، لأخرج منه علبة صغيرة ، قدمتها لزوجتى قائلًا :

ــ وهذه من أجلك ؛ حتى لاتقولى إننى قد نسيتك .

تناولتها بين يديها فى فضول ، قائلة :

ــ ماهذه؟

ــ افتحيها .. لترى بنفسك .

وفتحتها وهى تتراجع برأسها إلى الوراء ، وفى عينيها نظرة انبهار هاتفة :

ــ خاتم ماسى !.. إنه أكثر من رائع .

داعبتها قائلًا :

ــ حتى لاتغارى من ابنتك ، وتتهمينى بأننى أدللها وحدها .

سألتنى ، وقد حلت نظرة إشفاق فى عينيها على ميزانيتى محل نظرة الانبهار الأولى :

ــ ولكن لماذا يا (خالد) ؟ أقصد ما المناسبة ؟

قلت وأنا أحلّ رباط عنقى :

ــ وهل لابد من مناسبة ، لكى أحضر هدية صغيرة لزوجتى الحبيبة ؟

ــ كل هذا هدية صغيرة ؟! إنه باهظ الثمن ولاشك ..

قبلت جبينها قائلًا :

ــ لاشىء يكثر عليك

ــ ولكن يا (خالد) ....

قاطعتها قائلًا :

ــ (خالد) زوجك جوعان للغاية ، هيا أعدّى لنا الطعام أوّلًا ، ثم تحدّثى معى ماشئت بعد هذا .

قبلتنى قائلة :

ــ حالًا يا حبيبى .

وتأملتها وهى تستدير متجهة إلى المطبخ ، وشعرت بحالة من الرضاء والسكينة ، وأخذت أردّد لنفسى ، وأنا أرى ابنتى تتبعها :

ــ نعم .. هاتان اللتان بعث بهما الخالق إلى حياتى ، تستحقان التضحية .. صدقت (وفاء) .. ربما تحملت الحياة بقلب معذب ، ولكننى لم أكن لأتحملها مطلقًا بضمير مثقل .

وبعد أن انتهينا من تناول طعام العشاء . جلست بين زوجتى وابنتى ، نشاهد البرنامج الذى يعرضه (التليفزيون) . وعدت لتأملهما مرة أخرى سعيدا بأسرتى الصغيرة . وقد

ألقت ابنتى رأسها على صدرى ، مستسلمة لحركة أناملى فى شعرها الأسود الناعم ، المنسدل فوق كتفيها ، فى حين أحاطت يدى الأخرى بخصر زوجتى ، التى ألقت رأسها بدورها على كتفى ، مستسلمة للدفء ، الذى يبعثه التصاق جسدينا على هذا النحو ..

كان (التليفزيون) يعرض مسرحية ضاحكة ، وسرعان ما اندمجت زوجتى وابنتى مع أحداث المسرحية ، وتعالت ضحكاتهما ، أما أنا فلم أكن منتبهًا لما يدور أمامى على الشاشة ، فقد انتابتنى حالة من الشرود ، جعلتنى أحلّق بعقلى بعيدًا .. بعيدًا .. وأنا أستعيد ذكريات لقائى الأول بها .. بـ (وفاء) .

* * *



٢ ـ الحياة من جديد ..

فى ذلك اليوم كنت قد بدأت أُولى مظهرى عناية حقيقية ، وأنا أقف أمام المرآة ، أتأمل حلتى الجديدة ، وطريقة تصفيف شعرى ..

لقد مر علىَّ قبل ذلك اليوم عام وبضعة أشهر ، دون أن يبدو أى اهتمام بمظهرى على هذا النحو ، فقد كنت غالبًا أرتدى أول حلة تلتقطها يدى كى أذهب بها إلى عملى ، ولم أكن أكترث كثيرًا بأن يكون شعرى مهذبًا أو مشعثًا ، بل لم أكن أولى أية عناية لطعامى وشرابى ، مما جعلنى أبدو شاحب الوجه ، على نحو لافت للنظر ..

وفى الحقيقة ، فإن تلك الفترة من حياتى ، كانت من أسوأ الفترات التى مرّت علىَّ ؛ فقد كنت مكتئبًا على نحو دائم ، ولم تكن بى رغبة فى الحياة ، أو الاستمرار فيها .. لقد عافت نفسى كل شىء ، ولولا خشيتى من الله ، لأقدمت على الانتحار ، فمنذ جاءنى ذلك الخبر المشئوم ، بغرق السفينة السياحية ،

التى كانت زوجتى وابنتى ضمن ركابها ، بالقرب من السواحل اليونانية ، وتحوَّل العديد من الجثث إلى أشلاء ، على نحو يصعب معه تعرّف أصحابها . وأنا أعيش هذه الحالة النفسية القاسية ..

لقد كانت ابنتى وزوجتى هما كل حياتى ، على الرغم من أننى لم أقترن بزوجتى (سلوى) عن قصة حب ، وإنما جاء زواجنا تقليديًا ، عن طريق الأهل والأقارب ، فإننى أصبحت شديد الارتباط بعد الزواج ، وازداد إعزازى لها ، بعد كل ما رأيته من سلوكياتها ، منذ اللحظة الأولى التى إقترنا فيها معًا ؛ إذ كانت تعمل دائمًا على إسعادى ، وتتفانى فى خدمتى وراحتى ، برغم أنها كانت تردِّد دائمًا على مسامعى أنها تعرف أننى لا أحبها ، بتلك الطريقة الرومانسية ، التى كانت تفكِّر بها وتتمناها ، وكنت أنفى ذلك دائمًا ، وأحاول أن أشعرها بتقديرى الشديد ، واعتزازى البالغ بها ، إلا أنه يبدو أننى لم أنجح أبدا فى التعبير عن مشاعرى نحوها ، على النحو الذى كانت تأمله ، أو فى بثها عاطفة قوية ، من ذلك النوع الذى يتجاوز التقدير والاعتزاز ، ولم يكن لى حيلة فى ذلك ؛ فلم أكن من ذلك النوع من الرجال ، الذين يجيدون استخدام

عبارات الغزل ، كما أننى لم أعرف ذلك النوع من العواطف الملتهبة طوال حياتى ، حتى فى سنوات المراهقة ؛ إذ كان العمل دائمًا هو متعتى الأولى ، وظلّ الجانب العملى طاغيًا دائمًا على أسلوبى فى الحياة دون سواه ، ولكن هذا لم يحل مطلقاً بينى وبين تقديرى لزوجتى ، حتى رُزقنا بابنتنا الوحيدة (حنان) ، فتلمّست فى نفسى نوعًا من العاطفة ، لم أعهده من قبل ، وهى عاطفة الأبوة ، التى يبدو أنها كانت العاطفة الوحيدة التى طغت على مشاعرى ، دون أن أعرف لها حدوداً ، وزاد ذلك من عمق الرابطة ، التى جمعت بينى وبين زوجتى ، وأصبحت أسرتى الصغيرة هى كل حياتى ، إلى أن جاء ذلك اليوم الأسود ، الذى فكّرت فيه فى إسعادهما برحلة سياحية ترفيهية ، عن طريق الباخرة ، على أن ألحق بهما بعد الانتهاء من أداء بعض أعمالى فى (القاهرة) ، بوساطة الطائرة إلى (اليونان) ..

كانت أعمالى قد استغرقت الكثير من وقتى ، وكنت أعرف أن ذلك يأتى على حساب أسرتى . وعلى الرغم من أن زوجتى لم تحاول أن تشكو ، إلا أنه ما إن أتيحت لى الفرصة ، حتى قمت بشراء ثلاث تذاكر لنا ، لقضاء الإجازة السنوية ، على

الباخرة السياحية المتجهة إلى (اليونان) ، آملًا فى الحصول على بعض الاستجمام ، عن طريق تلك الرحلة البحرية ..

وليتنى سافرت معهما ، لكى ألقى نفس مالقيتاه من مصير ، ولكن القدر حال دون ذلك ، ووجدتنى مضطرًا إزاء بعض الأعمال ، التى كان يتعيَّن علىَّ أداؤها قبل سفرى ، أن أبقى بعض الوقت فى (القاهرة) ، وأرادت (سلوى) أن تبقى معى حتى نسافر معًا ، ولكننى طلبت منها أن تسبقنى ، عن طريق البحر إلى (اليونان) ، على أن الحق بها بوساطة الطائرة ، حتى لا أحرمهما جمال الرحلة البحرية ..

وشاء القدر أن تغرق السفينة ، وأن يتحوَّل ركابها إلى أشلاء ، تتنازعها أسماك البحر ..

وهكذا فقدت أسرتى الصغيرة ، وفقدت معها أية رغبة فى الحياة ، ثم تحوَّلت بهمومى إلى العمل ، أُغرق فيه أحزانى ، وأهرب به من آلامى ..

ومنذ يومين فقط ، بدأ الحزن يثقل على نفسى ، وشعرت أننى بحاجة إلى التخلّص من همومى ، والعودة مرة أخرى إلى ممارسة حياتى الطبيعية ، وعلى الرغم من إحساسى بالذنب ؛ لتفكيرى على هذا النحو ، وبأننى لم أعد مخلصًا لزوجتى

وابنتى ، على النحو الذى يتحتم على أن أكونه ، إلا أنه يبدو أن الحزن ، مهما كانت قسوته ، لابد له من نهاية ، والمحنة ، مهما كانت شدتها ، لابد من تجاوزها ذات يوم ، ومحاولة التغلب عليها بالنسيان ..

وهكذا قرَّرت الاستسلام لمشيئة الخالق ، والعودة مرة أخرى لحياتى الطبيعية ، فعدت أعتنى بمظهرى ونفسى من جديد ، وأقضى ساعات أقل فى عملى ، وأرتاد الحفلات التى يقيمها رجال الأعمال من آن لآخر ، وكذا أماكن الترويح ..

الشىء الوحيد الذى لم أفكر فيه أبدًا هو المرأة ؛ فلم أكن مستعدًا للتفكير بأى حال من الأحوال ، فى وجود امرأة أخرى فى حياتى ، غير زوجتى التى فقدتها ..

وعدت أنظر إلى صورتى فى المرآه ، وشعرت أننى قد بالغت بعض الشىء فى تأنقى ، وربما أن هذه المبالغة من جانبى كانت نوعًا من التعويض ، عن فترة الحزن والإهمال الطويلة ، التى عاملت نفسى بها ، طوال الأشهر الماضية ..

لقد بدأت بعض الشعيرات البيضاء تتخلل شعرى الأسود اللامع ، ولكنها لم تُنقص كثيرًا من وسامتى ، بل ربما أضافت لوجهى شيئًا من الجاذبية ، فتلك الشعيرات البيضاء كانت

تضفى على شيئًا من المهابة ، وتعلن بوضوح عن نضوجى ..

وسرعان ما تملكنى إحساس بالضيق ، وأنا أسأل نفسى : لماذا أعامل نفسى بمثل هذه النرجسية المقيتة ، التى لم أعهدها فى طبيعتى من قبل ؟ ..

أهو الإحساس بالتقدّم فى العمر ؟.. أم أننى أحاول أن أكسب بعض الثقة بالنفس ، التى افتقدتها من جراء العزلة عن الحياة الطبيعية لفترة طويلة ؟..

وأخذت أهبط فى درجات السلم المؤدى إلى الدور الأرضى ، من الفيلا التى أقطنها ، فى شىء من التكاسل ، وقد غمرنى شعور مفاجئ بعدم الرضاء عن النفس ..

شعور ظل ينتابنى من آن لآخر ، طوال اليومين الماضيين ، ليذكرنى بأنه يتعيَّن علىّ ألا أكون سعيدًا ، أو مزهوًّا بنفسى ، أو راضيًا عن نجاحى ، وأننى يجب علىّ أن أتألم دائمًا ، وألّا أنسى الألم ، بعد أن فقدت زوجتى وابنتى الوحيدة ..

وعلى الرغم من إصرارى على نسيان الألم والحزن ، وليس نسيان الزوجة والابنة ، اللتين لن أنساهما أبدًا ، إلا أننى لم أستطع أن أتغلب على هذا الشعور ، الذى كان يحرمنى الاستمتاع بلحظات سعادة دائمة ..

واستقبلنى عم (حسين) ، الرجل الذى يقوم على خدمتى ، قائلًا :

ــ هل أعد لك الإفطار يا (خالد) بك ؟

قلت ببرود :

ــ لا يا عم (حسين) ؛ سأتناوله فى مكتبى .

وسألنى قائلًا :

ــ وهل ستعود فى موعد الغداء ؟

شردت لحظة وأنا أسترجع فى ذاكرتى مواعيد ارتباطاتى ، ثم قلت :

ــ ربما أتأخر قليلًا .

عاد يسألنى بطيبته المعهودة :

ــ (خالد) بك .. لا تؤاخذنى .. فقد سمحت لى أن أعاملك كابنى .. هل هناك شىء يضايقك ؟

رسمت على وجهى ابتسامة باهتة ، قائلًا :

ــ لا يا عم (حسين) .. اطمئن .. لا يوجد ما يضايقنى .

نظر الرجل إلى وجهى متشككًا ، وهو يقول :

ــ هل نسيت أننى أعرفك جيدًا ؟ .. لقد أسلمنا أمرنا لله ، وتجاوزنا المحنة التى ألمت بنا .. أليس كذلك ؟

قلت وأنا أهز رأسى :

ـ نعم .. نعم .. إننى أحاول تجاوزها .

ـ تحاول .. ولكن يابنى ....

قلت له بضيق ، مقاطعًا :

ـ عم (حسين) .. قلت لك إننى أحاول ، وهأنتذا ترانى أعتنى بثيابى ، وأقضى بعض الوقت فى الخارج ، بعيدًا عن العمل ، وألتقى بالأصدقاء والمعارف ، وأضحك بصوت عال من آن لآخر ... إننى أحاول ، ولكننى لا أستطيع أن أتغلب على تلك الأحزان ، التى تهاجمنى فى بعض الأوقات .. إنها زوجتى وابنتى ، ألا تدرك قسوة ذلك على نفسى ؟

وخفض الرجل وجهه احترامًا لآلامى ، قائلًا :

ـ نعم .. أعرف فداحة مصابك ، ولكننى أرجو ألا تنقطع عن الاستمرار فى المحاولة ، حتى تتغلب على كل أحزانك ، وتُقبل على الحياة مرة أخرى ، الصورة التى عهدتك عليها .

ودّعته وأنا أنصرف :

ـ اطمئن يا عم (حسين) ، أنا أيضًا مللت الحزن ، وأريد أن أعود لحياتى .

ودخلت إلى المكتب ، بعد أن حييت الموظفين العاملين معى تحية الصباح ، وأنا أرسم على وجهى ابتسامة ودودًا ، وقابلتنى سكرتيرتى قائلة :

ـ لقد اتصل بك (عبد الغفار) بك ، منذ ربع ساعة .

سألتها :

ـ و(مدكور) .. ألم يتصل بعد ؟

جمعت بعض الأوراق من فوق مكتبها ، لتضعها فى ملف واحد ، وهى تردّ علىَّ قائلة :

ـ كلا .. هل أحضر لسيادتك الأوراق التى طلبتها أمس ؟

توقّفت أمام باب حجرتى قليلًا ، ثم استدرت إليها قائلًا :

ـ (سعاد) .. هل يمكنك إعداد إفطار خفيف لى أولًا ؟ فقط شطيرة أو اثنتين مع كوب من الشاى .

أعادت (سعاد) الأوراق إلى المكتب قائلة : كما لو كانت قد فرحت بهذه المهمة ، التى كلفتها إياها :

ـ حالًا يا (خالد) بك .

ودفعت باب حجرتى ، وأنا أدخل قائلًا :

ـ أشكرك .

وبعد قليل ، كنت أجلس أمام مكتبى ، أراجع تلك الأوراق الخاصة بعملية تصدير الموالح ، وأتناول إفطارى المكوّن من شطيرة جبن وكوب شاى ؛ وفجأة سمعت صوت سكرتيرتى ، عبر السّماعة الداخلية ، الموضوعة فوق مكتبى ، وهى تقول :

ـ الأستاذ (مدكور) يريد مقابلة سيادتك .

فقلت لها ، دون أن أتوقّف عن متابعة إفطارى :

ـ دعيه يدخل .

كان (مدكور) فضلا عن كونه نائبًا لى ، فى إدارة شركة التصدير والاستيراد ، التى أمتلكها ، يعدَ صديقًا من أقرب الأصدقاء إلى نفسى ، وكان يتميَّز بدقة متناهية وإخلاص حقيقى فى عمله ، بالإضافة إلى خفة ظل حقيقية ، قادرة على امتصاص أصعب المواقف وأشدها تأزّمًا ، وكان الوحيد الذى أسمح له أن يأتى إلى مكتبى فى أى وقت ، ودون استئذان ، بالإضافة إلى أنه الوحيد الذى كنت أبوح له بأسرارى ، ومشاكلى الشخصية ..

وبعد لحظات سمعت عدة طرقات على الباب ، فقلت ساخرًا :

وهل أمثالك يحتاجون إلى طرق الأبواب ؟

عادت الطرقات مرة أخرى ، فعدت أكرّر :

ـ منذ متى كنت مهذبًا هكذا !؟.. أدخل يا (مدكور) .

وعدت أراجع الأوراق الموضوعة أمامى ، وأنا أقضم قطعة من الشطيرة ، والباب يُفتح ، دون أن أهتم بالنظر إلى الصديق القادم ، وفجأة سمعت صوتها الرقيق الناعم وهى تقول :

ـ عفوًا .. يبدو أننى جئت فى وقت غير مناسب .

رفعت عينى عن الأوراق الموضوعة أمامى ، وتوقّفت القضمة التى أخذتها فى حلقى ، لأراها واقفة على بعد عدة خطوات من مكتبى ، وهى تنظر إلىَّ فى استحياء .. وبدون أن أدرى وجدتنى أقفز من فوق مقعدى دون اتزان ..

لقد رأيت أمامى فى هذه اللحظة واحدة من أجمل الفتيات التى وقعت عليها عينى ..

بل إنها كانت أجمل ما رأته عينى على الإطلاق ..

رأيت (وفاء) .

* * *

٣ ــ تحت رحمة القدر ..

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن تقول الفتاة فى خجل :

ــ آسفة .. ولكن .. ولكننى لم أجد أحدًا فى الغرفة المجاورة ، فاضطررت إلى أن أطرق الباب هكذا ، دون استئذان .

قلت لها وأنا أحاول أن أبدو متماسكًا :

ــ آه .. يبدو أن السكرتيرة قد غادرت مكتبها ، أعتقد أننى أنا الذى يجب أن يعتذر ، فقد خاطبتك بطريقة غير لائقة ، ولكننى ظننتك شخصًا آخر كنت أنتظره .

قالت لى سريعًا :

ــ يمكننى أن أحضر فى وقت آخر .

ولكننى استدرت حول مكتبى ، باسطًا لها يدى ، وأنا أقول بلهجة مرحِّبة :

ــ مطلقًا .. تفضلى بالجلوس من فضلك .

ابتسمت وهى تصافحنى بيد بضّة رقيقة الملمس ، قائلة :

ــ (وفاء) .. (وفاء صبرى) .

كان صوتها شديد العذوبة ، له وقع خاص على أذنى ، فقلت لها وأنا أزدرد لعابى ، مشيرًا لها بالجلوس :

ــ أهلًا بك .. يا (وفاء) هانم .

وأخذت أتأمّلها ، وهى تجلس فوق المقعد المواجه لمكتبى ، كما لو كنت ريفيًا يرى إحدى فتيات المدينة لأول مرة فى حياته ، وأخجلنى هذا الأثر الذى تركته تلك الفتاة فى نفسى ، فلقد رأيت الكثير من الفتيات الجميلات طوال حياتى ، ولكن إحداهن لم تفتنى على هذا النحو ، ولم تنجح لى أن تدير رأسى ، أو تخرجنى عن رصانتى ، وسيطرتى على مشاعرى ، ولكن هذه كانت شيئًا آخر .. شيئًا لا يمنحك الفرصة للمقاومة ، أو الاحتفاظ باتزانك .

وحاولت التغلب على هذا التأثير باصطناع الجدية ، وأنا أعود لأجلس أمام مكتبى فى مواجهتها ، قائلًا :

ــ هل من خدمة أستطيع أن أؤديها لك ؟

قالت بنفس الصوت الناعم النبرات :

ــ فى الواقع إننى أحتاج منك إلى خدمة بالفعل .

قلت لها بهدوء :

ـــ تفضلى .
ثم استدركت قائلًا :
ـــ آسف .. نسيت أن أطلب لك شيئًا أوّلا .. ماذا تشربين ؟
ولكنها قالت بلهجة جادة :
ـــ أُفضّل أن ندخل فى الموضوع مباشرة .. منذ عام ونصف تقريبًا ، اشتريت منى مزرعة صغيرة ، عبارة عن قطعة أرض ، مكوّنة من ستة أفدنة ، ومنزلا صغيرًا ، عبارة عن فيلا بحديقة .. هل تذكر ذلك ؟
قلت لها ، وأنا أجهد ذهنى فى التفكير لبعض الوقت :
ـــ فى الحقيقة .. لاأتذكر ذلك .. بل لاأذكر اننى قابلتك من قبل ، فوجه كهذا لايمكن أن يُنسى أبدًا .
تجاهلت مجاملتى ، وهى تستطرد قائلة :
ـــ إنك لم تشتر منى الأرض مباشرة .. بل اشتريتها عن طريق وكيل لك كما أعتقد ، وقطعة الأرض التى أحدثك عنها تقع فى مدخل محافظة القليوبية ، وتلك الأفدنة كانت مخصّصة لإنتاج الفراولة .
قلت وقد بدأت أتذكّر :

ـــ آه إنها تلك المزرعة ، التى اشتريناها فى (قليوب) .. نعم لقد تذكرتها .. لقد كلفت (مدكور) وقتها التعاقد على شرائها ، وأعتقد أننا دفعنا لك المبلغ الذى طلبته .. أليس كذلك ؟
قالت وهى تتطلع إلى وجهى مباشرة :
ـــ نعم .. ولكننى الآن بحاجة إلى هذه المزرعة ، وأبغى استردادها مرة أخرى .. حقًا إننى لا أملك الآن المبلغ الذى يساوى ثمنها ، ولكننى مستعدة لدفع جزء من هذا المبلغ ، وبقية الأقساط سأقوم بسدادها على عدة سنوات ، فأنا أملك مصنعًا صغيرًا للتطريز ، ويمكننى أن أقوم ....
ولكننى قاطعتها ، قائلًا وأنا أبتسم :
ـــ مهلًا .. مهلًا .. إننى أقدّر رغبتك هذه ، ولكننى فى الحقيقة غير مستعد لبيع المزرعة .
نظرت إلىّ برجاء ، قائلة :
ـــ أستاذ (خالد) ، لو تعلم مقدار حاجتى إلى هذه المزرعة الآن .
قلت لها ، وقد تغلب علىّ طابع رجال الأعمال :
ـــ ليتنى كنت أستطيع تحقيق رغبتك ، ولكن محصول هذه

المزرعة أصبح يدخل ضمن خطتنا السنوية فى تصدير الفواكه ، وهناك طلب متزايد فى الخارج على إنتاج هذه المزرعة بالذات .

ظلت تنظر إلىّ برجاء ، وهى تقول :

ــ لديك أكثر من مزرعة لزراعة الفواكه ، ولديك شركة للتصدير ، أما أنا فبحاجة حقيقية لهذه المزرعة ، حتى لو تنازلت فى سبيل استردادها عن كل ما أملكه .

عدت أقول ببرود . محاولا التغلب على تأثيرها فى نفسى :

ــ آسف .. لقد شرحت لك الأمر .

صمتت برهة من الوقت ، ثم عادت تقول :

ــ إذن هل يمكنك أن تبيعنى المنزل ؟

قلت ، وقد شعرت بشىء من الحرج ، إزاء إلحاحها هذا :

ــ ولكننى أحتاج إلى هذا المنزل ، فى الفترات التى أذهب فيها إلى المزرعة ، للإشراف على جمع المحصول ، وتغليفه وتعبئته ، قبل إعداده للتصدير ، فهذا يقتضى منى البقاء فى المكان لعدة أسابيع ، فى بعض الأحيان .

قالت بتوسل .

ــ إننى مستعدة لأن أدفع لك ...

ولكننى قاطعتها بخشونة :

ــ (وفاء) هانم ... لا داعى للإلحاح ، لقد كان المنزل والمزرعة ملكًا لك منذ البداية ، وأنت التى عرضتهما للبيع ، ودفعنا لك الثمن الذى أردته مقابلهما ، والآن أنا غير مستعد للبيع ، مهما كان الثمن الذى ستدفعينه .

رأيت فى عينيها نظرة حزينة متألمة ، وهى تنهض من المقعد بانكسار ، قائلة وفى صوتها شىء من الأسى :

ــ أشكرك على كل حال .

حدقت فيها مرتبكًا لحظة ، وهى تهمّ بالانصراف ، ثم لم ألبث أن غادرت مقعدى ؛ لألحق بها عند الباب قائلًا :

ــ لحظة من فضلك والتفتت إلىّ وفى عينيها تلك النظرة الحزينة ، التى زادتنى ارتباكًا ، فقلت لها متلعثمًا ، وفى صوتى إحساس بالندم :

ــ أنا آسف لعدم تحقيقى رغبتك ، ولكن ..

وجدتنى أقطع اعتذارى فجأة ، قائلًا :

ــ ولكن ما سبب إصرارك على استرداد تلك المزرعة .. و ذلك المنزل بالذات ؟

رأيت دمعة تنحدر فوق وجنتيها ، وهى تقول :

ـــ كان زوجى صاحب هذه المزرعة ، ولقد قضيت فيها أحلى سنوات عمرى ، وعلى الرغم من أن زوجى كان يكبرنى بخمسة عشر عامًا ، إلا أننى لم أشعر بفارق السن معه لحظة واحدة .. كان زوجًا حنونًا عطوفًا بكل معنى الكلمة ، وفى ذلك المنزل رُزقنا بطفلتنا الوحيدة ، التى ملأت علينا المكان بهجة وسعادة ، ولم أكن أطلب من الدنيا أكثر من هذا .. زوج حنون .. وابنة جميلة .. وإيراد طيب ، تدره علينا المزرعة ، وبيت صغير كان زوجى يمتلكه فى المدينة ، وعشنا بفضل هذا الإيراد حياة رغدة سعيدة مستقرة ، داخل جدران المنزل ، الذى أقامه زوجى بالقرب من المزرعة ، والذى صار بالنسبة لنا بمثابة جنة صغيرة ، ولكن القدر لم يكن رحيمًا بنا حتى النهاية ، فقد توفى زوجى منذ سبعة أعوام ، ولم يعد متبقيًا لى سوى ابنتى الصغيرة ، التى اكتفيت بها من كل متاع الدنيا ، وعملت على أن أكون لها الأم والأب فى آن واحد ، ويبدو أن صدمتى فى وفاة زوجى المفاجئة لم تكن الأخيرة ، فقد أصيبت ابنتى منذ عامين بداء خبيث ، ولك أن تتصوَّر لوعتى ، عندما كشفت ذلك .. ولقد أنفقت الكثير من المال ؛ فى سبيل علاجها ، ولكن كل ما أنفقته لم يأت بنتيجة ، وأشار علىّ

بعض الأطباء بالسفر إلى مصحة خاصة فى (سويسرا) ، حيث إن (سويسرا) تمتلك وسيلة العلاج الوحيدة المتاحة ، وبقلب أم ملتاعة ، لم أكن لأتوانى عن علاجها ، حتى ولو كان ذلك فى آخر بلاد العالم ، وحتى لو أنفقت فى سبيل ذلك كل قرش أملكه .. ولما كان دخلى قد تأثر كثيرًا بمصاريف العلاج الباهظة ، بالإضافة إلى سوء حال المزرعة ، بعد أن أهملت الإشراف عليها ، والعناية بها ، لانشغالى بمرض ابنتى ، قررت أن أبيع المزرعة والمنزل ، وأن أستخدم ثمنهما فى علاج ابنتى بالخارج ، وهكذا عرضت عليك بيع المزرعة ، التى اشتريتها منى ، ثم سافرت ومعى طفلتى إلى (سويسرا) ، حيث أقمت فى المصحة التى أودعتها بها للعلاج ، ولكن الشهور توالت ، ولم يأت العلاج بالنتيجة المرجوّة ، وكانت إرادة الله فوق كل شىء ، وماتت ابنتى الوحيدة تحت وطأة المرض الذى لا يرحم .

وكانت وصيتها الوحيدة لى قبل موتها ، هو أن أستردَّ المزرعة التى قضت بها أسعد أوقاتها ، والمنزل الصغير الذى كانت تحبه من كل قلبها ، ولا تطيق الابتعاد عنه إلى أى مكان آخر ، لأكثر من يوم واحد .. قالت لى قبل أن تموت :

— أمى الحبيبة .. لاتدعى أحدا يأخذ هذا المنزل منا ..
إننى أحب هذا المنزل الصغير ، أكثر من كل تلك الأماكن الجميلة ، التى رأيتها فى (سويسرا) ولقد آليت على نفسى تحقيق وصيتها ؛ ولذا جئت إليك ، محاولة شراء المزرعة ، أو المنزل على أقل تقدير ؛ لكن ماذا أفعل الآن ، سوى أن أطلب من روح ابنتى الغفران ، إزاء إصرارك على عدم البيع ؟

وفى تلك اللحظة فُتِحَ الباب فجأة ، ليدخل منه (مدكور) بطريقته المرحة المعهودة ، قائلًا :

— جاء الفارس الهمام .. أعرف أننى تأخرت عليك قليلًا ، ولكن .. وسرعان ما توقفت الكلمات فى حلقه ، عندما تبيَّن له وجود سيدة معى بالداخل ، فتراجع عدة خطوات إلى الوراء ، وهو يبتسم قائلًا :

— آسف .. لم أكن أعرف أن معك ...

وعاد يتوقف عن متابعة حديثه مرة أخرى ، وهو ينظر لتلك العبرات ، التى لم تجف بعد على وجنتى (وفاء) ، ونظرة الحزن المطلّة من عينيها ، ثم نظر إلىَّ ، حيث كان التأثر واضحًا على وجهى ، بعد سماعى قصتها ، إلى الحد الذى لم أستطع معه أن أنطق بكلمة واحدة ، وأحسّ (مدكور) بشىء من

الارتباك ، لتلك الحالة التى يبدو عليها كلانا ، فاقترب منى قائلًا :

— هل حضرت فى وقت غير مناسب ؟.. يمكننى أن آتى فى وقت آخر لو أحببت ؟ وكنت ماأزال غير قادر على أن أقول شيئًا ، وأنا أسترجع تفاصيل ماقالته لى (وفاء) مختلطة بذكرى فقدى لزوجتى وابنتى ..

لقد بدا لى فى هذه اللحظة أن أحزاننا تندمج معًا ..

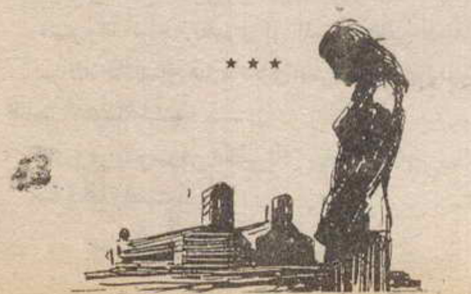
وبدا (مدكور) غير قادر على مقاومة فضوله ، وهو يسألنى قائلًا :

— (خالد) ما الذى يحدث ؟

وفى أثناء ذلك كانت (وفاء) قد غادرت الغرفة ، دون كلمة واحدة ، وحملت معها أهم شىء فيها ..

قلبى .

* * *



٤ ــ أخذتنى عينياها ..

عاد (مدكور) ينظر فى اتجاه الباب ، قائلًا :

ــ اعتقد أننى رأيت هذه السيِّدة من قبل .

قلت له ، وأنا أعود لأجلس أمام مكتبى :

ــ لقد أشترينا منها تلك المزرعة فى (قليوب) منذ عام ونصف تقريبًا .

ضرب بيده على جبهته ، قائلًا :

ــ آه تذكَّرت .. لقد توليت الشراء نيابة عنك .. وكيف يمكن للمرء أن ينسى امرأة لها كل هذا الجمال الساحر .. ؟! ولكن .. ولكن لماذا بدت حزينة على هذا النحو ؟ اعتقد أنها كانت تبكى ، قبل دخولى إلى الغرفة .

قلت وأنا أتراجع بظهرى إلى المسند الخلفى للمقعد :

ــ لقد جاءت إلى هنا ؛ أملًا فى استرداد المزرعة والمنزل ، اللذين أشتريناهما منها .

قال وهو يقترب من مكتبى :

ــ قطعًا رفضت .

أجبته ، وفى صوتى رنة أسف :

ــ نعم .

وجلس قائلًا :

ــ يبدو أنها متعلِّقة بهذا المكان إلى حد كبير ، فمن الواضح أنها تألَّمت من رفضك هذا .

أجبته وأنا أشعل سيجارتى :

ــ كانت وصية ابنتها المتوفاة ، هى الاحتفاظ بالبيت ، والبقاء فى هذا المكان .

نظر إلىَّ بتمعَّن ، وهو يُقرِّب وجهه منى ، قائلًا :

ــ إنك نادم على رفضك .. أليس كذلك ؟

أجبته قائلًا :

ــ لا أخفى عليك ذلك .. خاصة بعد أن روت لى قصتها مع ابنتها ، التى فقدتها وهى بعد فى مرحلة الطفولة .. لقد ذكرنى ذلك بابنتى .

ابتسم وهو يحاول أن يخفف عن كاهلى ، قائلًا :

ــ هيه .. (خالد) .. لا تسلِّم نفسك لتلك الأشياء العاطفية ، ولا تنس أنك رجل أعمال .

قلت :

ـــ ولكن ...

ولكنه قاطعنى قائلًا :

ـــ ولكنك لم تخطئ فى حقها فى شيء ، إننى أذكر أنها طلبت مبلغًا باهظًا مقابل مزرعتها هذه ، ودفعت لها ما أرادته ، دون حتى التفكير فى المساومة .. إذا كانت تريد أن تسترد المزرعة ، فلتدفع ضعف الثمن الذى أشتريناها به ، ولو أن محصول هذه المزرعة جيد للغاية ، ويحقق إنتاجًا وفيرًا ، ودخلًا جيدًا لشركتنا .

قلت بضيق ، وأنا أنفث دخان سيجارتى :

ـــ ألا يمكنك التفكير بلغة أخرى ، غير لغة الأرقام هذه ، أمام بعض المواقف الإنسانية المؤثرة ؟

أجابنى بسخريته المعهودة :

ـــ نعم .. أستطيع أن أفكّر بلغة أخرى ، غير لغة الأرقام .. أستطيع أن أدبّر لك سهرة رائعة هذه الليلة ، تنسيك هذا الأثر النفسى ، الذى أحدثته فيك هذه المرأة بجمالها وقصتها الدرامية .

غادرت مكانى لأقف أمام النافذة المطلّة على الشارع المزدحم ، وقد أوليته ظهرى ، قائلًا :

ـــ لا تنس أن لى أيضًا قصة درامية ، لا تزال آثارها باقية فى نفسى .

اقترب ليربِّت على كتفى ، قائلًا بمودة :

ـــ (خالد) .. لقد اتفقنا أن ننسى ، ونلقى الأحزان وراء ظهورنا .

تنهدت ، وأنا أنظر إليه برهة من الوقت ، ثم قلت :

ـــ معك حق .. دعنا نر ماذا يمكن أن تقدمه لنا سهرتك المزعومة هذه .

ابتسم قائلًا :

ـــ تأكد أنك لن تندم .

قلت ، وأنا أصحبه إلى مكتبى :

ـــ والآن دعنا نر أولًا ماتمليه علينا متطلبات العمل .. هذا هو المهم .

* * *

ـــ فى المساء ، كان المكان يمتلئ ضجيجًا حولنا . مابين الرقص والموسيقى الصاخبة ، والفقرات المتنوّعة المختلفة ، التى يعرضها الملهى الليلى . الذى أخذنى إليه (مدكور) ، وكان من الواضح أن (مدكور) يتفاعل تمامًا مع هذا الجو

المحيط بنا ، فى حين كنت أنا منصرفًا كلية عما يدور أمامى وحولى ، ولا ريب أن (مدكور) قد لاحظ ذلك ، فالتفت إلىَّ قائلًا :

ــ (خالد) ... ما الذى يشغلك ؟ هل يكون المرء محاطًا بجو كهذا ، ويشرد على هذا النحو ؟

نظرت إليه دون أن أنطق بكلمة ؛ فقد كنت شاردًا بالفعل ، إذ لم تبرح تلك المرأة تفكيرى ، منذ أن رأيتها هذا الصباح ، وعاد مدكور يقول ، بعد أن صبَّ فى جوفه بعض الشراب :

ــ يبدو أن سهرتى جاءت مخيِّبة للآمال .

قلت فجأة ، وأنا أقبض على ذراعه :

ــ (مدكور) .. أريد منك أن تعرف عنوان هذه السيدة .

نظر إلىَّ بدهشة ، قائلًا :

ــ أية سيدة ؟

قلت وقد تخلَّصت من شرودى :

ــ التى رأيتها فى مكتبى هذا الصباح .. (وفاء) .. (وفاء صبرى) .

تطلع إلىَّ بامتعاض ، قائلًا :

ــ أما زلت تفكِّر فيها ؟ .. لست أنكر أنها بارعة الجمال ، ولكن .. قاطعته بخشونة :

ــ (مدكور) .. فلتأخذ الأمر بجدية ... إننى أريد عنوان هذه السيدة .

ــ ولكن كيف يمكننى العثور عليه ؟ ألديك أية معلومات عنها ؟

ــ لا أعرف سوى أنها تمتلك مصنعًا صغيرًا للتطريز .

ــ وهل تسمى هذه معلوماتٍ ؟ .. فى البلد مئات المصانع ، التى تعمل فى التطريز ، فكيف تريد منى أن أعثر عليها ؟

ــ تصرَّف .. المهم أن تعرف عنوانها بأية صورة ؟

قال ساخرًا :

ــ قل لى : هل تريد أن تبيع لها المزرعة ، التى اشتريناها منها ، مرة أخرى ، أم تنوى أن تتبرع لها بها ؟

وقفت فجأة ، وقد شعرت بضيق من المكان ، قائلًا :

ــ أريد أن أنصرف من هنا .

نظر إلىَّ بدهشة ، قائلًا :

ــ تنصرف ؟! ولكن السهرة لم تبدأ بعد ، ما تزال هناك العديد من الفقرات ، و....

أزحت المقعد الذى كنت أجلس عليه جانبًا ، وأنا أقول فى حزم :

ــ يمكنك أن تبقى لو أردت .

ولكنه غادر مقعده ، قائلا :

ــ وما الفائدة ؟ لقد جئت إلى هنا من أجلك ، ولكن يبدو أن تلك المرأة تستحوذ على تفكيرك تماما .

وكان على حق ..

* * *

كانت تهم بمغادرة مصنعها الصغير ، المكوّن من حجرتين ضيقتين ، تحويان ثلاث أو أربع آلات للتطريز ، ووقفت تنادى سيارة أجرة ، عندما غادرت سيّارتى على الرصيف المقابل ، لأقترب منها قائلا :

ــ أتسمحين لى بتوصيلك ؟

نظرت إلىّ بدهشة ، قائلة :

ــ أستاذ (خالد) ؟! ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

ابتسمت قائلا :

ــ لقد حضرت خصيصا لمقابلتك .

تطلّعت إلىّ ، وأطلّت من عينيها نظرة أمل ، قائلة :

ــ لعلك وافقت على بيع المزرعة أو المنزل .

قلت لها :

ــ هل يمكننا أن نذهب إلى أحد الأماكن العامة ؛ لنتحدث فى هذا الأمر ؟

قالت وفى عينيها فرحة حقيقية ، بعد أن تجددَّ لديها الأمل :

ــ بالطبع .

قلت لها :

ــ حسنًا .. سيارتى تقف إلى جوار الرصيف المقابل .. يمكننا أن نذهب إلى أقرب (كازينو) ؛ لنتحدَّث معًا .

تقدّمتنى بخطوات سريعة ، بدت متلهفة للوصول إلى ذلك المكان ، لتعرف ما استقرّ عليه رأيى بهذا الشأن ، وفى (الكازينو) المطلّ على البحر ، جلست أمامها حول إحدى الموائد ، وتفحّصت عينيها الجميلتين بلونهما الأزرق الصافى ، فى أثناء انشغالها بوضع حقيبتها فى المقعد المجاور ، كما بدا شعرها الذهبى ، الذى ينسدل بنعومة وانسيابية فوق كتفيها ، يثير فى نفسى إحساسًا قويًا بالرغبة فى تمرير أصابعى فوقه ، والشعور بملمسه .. كان من الواضح أن القصة ، التى روتها لى هذه المرأة ، لم تكن وحدها الدافع لاهتمامى بها ، بل كان يدفعنى إلى

ذلك أيضًا إعجابى الشديد بها .. هذا الإعجاب الذى لم يكن منحصرًا فيما خلقها الله عليه من جمال فقط ، ولكن فى كل إيماءه من إيماءاتها .. فى أسلوب حديثها .. طريقتها فى الجلوس ، وفى الحركة .. وكان يجب على أن أسلِّم أننى صرت مأخوذًا بهذه المرأة ، منذ اللحظة الأولى التى وقعت فيها عيناى عليها ..

وتطلّعت إلىَّ ، دون أن تنتبه إلى نظرات الإعجاب ، التى تطل من عينىَّ قائلة :

ــ فى الواقع .. لقد فكرت قليلًا ، فى أثناء حضورنا إلى هذا المكان ، ووجدت أننى لن أستطيع أن أدفع لك ثمن المزرعة بالكامل ؛ لذا سأكتفى بشراء المنزل فقط ، إذا وافقت على ذلك ، فإمكانياتى المادية الحالية لاتسمح بغير ذلك .

قلت لها :

ــ مدام وفاء .. لقد فكّرت كثيرًا فى رغبتك فى شراء المزرعة والمنزل ، كما أننى أقدِّر دوافعك لاسترداد هذا المكان العزيز على نفسك ، ولكن أنا أيضًا لدى دوافعى ، للاحتفاظ بذلك المكان .

وصمتّ قليلًا ، وأنا أرى تلك النظرة التى كاد يتسرَّب

إليها اليأس فى عينيها ، لأقول مستطردًا :

ــ ولكن .. ما رأيك لو جعلتك شريكتى فى هذه المزرعة ؟

حدَّقت فى وجهى قائلة :

ــ شريكتك ؟!

رددت عليها ، قائلًا :

ــ نعم .. لقد أقمت فى هذه المزرعة فترة طويلة من عمرك ، ولديك خبرة كبيرة فى إدارتها ، سواء وأنت تعملين إلى جوار زوجك أو بمفردك ، وأنا بحاجة لهذه الخبرة ؛ لذا يمكننى أن أتخلّى لك عن المنزل لتقيمى فيه ، وتتولى فى ذات الوقت الإشراف على شئون المزرعة ، بالنيابة عنى ، على أن تكونى شريكتى بنسبة معيّنة فى الربح ، الذى سيدره علينا المحصول ، المصدَّر من المزرعة .. أعتقد أن هذا الحل يناسبك ، خاصة وأنك ستقيمين فى نفس المنزل ، الذى عشت فيه من قبل ، وتؤدين نفس العمل الذى كنت تمارسينه .. أليس كذلك ؟

صمتت قليلًا ، ثم قالت :

ــ نعم .. أوافق على ذلك ، ولكن ما الذى تطلبه منى ، مقابل أن أكون شريكتك ؟

نظرت إليها قائلًا :

ـ ليس مطلوبًا منك سوى ما قلته لك ، وهو الإشراف على إدارة المزرعة ، والعناية بمحصولها .

قالت لى :

ـ هذا يعدّ كرمًا منك ، ولكنه لايكفى لكى أكون شريكتك فى مزرعة كهذه .. إنك تسعى لتحقيق رغبتى بطريقة كريمة .

قلت معاتبًا :

ـ ما هذا الذى تقولينه ؟ إنك ستبذلين جهدًا كبيرًا ، فى مقابل إشرافك على شئون هذه المزرعة ، وستحققين لى الكثير من الفائدة .

ولكنها أصرّت على موقفها ، قائلة :

ـ ولكنى مازلت أرى أن هذا لايوازى أن أكون شريكة لك ، فى هذه المزرعة .

قلت لها :

ـ وما الذى تقترحينه إذن ؟

أجابتنى قائلة :

ـ لن أكون بحاجة إلى مصنع التطريز الصغير الذى أمتلكه .

بعد حضورى إلى هذا المكان ؛ لذا فسأقوم ببيعه ، وأدفع ثمنه مقابل مشاركتى لك فى أرباح المزرعة .

ابتسمت لها قائلًا :

ـ حسنًا .. إذا كان هذا يرضيك .. والآن ماذا تشربين ؟

وتلفّت حولى ، باحثًا عن الساق ، ولكننى تحولت إليها بوجهى فجأة ، بعد أن شعرت بملمس يدها ليدى ..

كانت قد وضعت راحتها فوق يدى الممدودة فوق المائدة ، وفى عينيها نظرة امتنان ، وهى تقول :

ـ تأكد أننى لن أنسى لك هذا أبدًا .

ولم أدر ، فى هذه اللحظة ، ماذا أقول ؟ لقد توقّف عقلى عن التفكير ، ولم أعد أفكّر فى استدعاء الساق أو البحث عنه .. لم أعد أشعر سوى بتلك اليد البضّة الناعمة ، وهى موضوعة فوق يدى ، وفى تلك العينين الجميلتين ، وقد اجتذبتانى إلى أغوارهما ..

أغوارهما السحيقة .

***

٥ ــ رهان على الحب ..

فتحت لها باب الفيلا ، وأنا أدعوها إلى الدخول قائلًا :

ــ ها هو ذا منزلك كما تركته .. لم أحاول أن أضيف إليه أية أشياء جديدة ، عدا بعض الأشياء الصغيرة ، التى لا أعتقد أنها غيَّرت شيئًا من معالم (الفيلا) ، وهى منذ الآن تحت أمرك .

اندفعت (وفاء) داخل الفيلا ، وهى تتأمَّل الجدران والغرف ، وفى عينيها نظرة أسى لقد بدأت تستعيد ذكرياتها مع المكان ، وذكريات ابنتها الراحلة ، ووجدتها تندفع كالمجنونة لتفتح أبواب الغرف ، حتى استقرّتْ داخل إحداها ، وأنشبت أظفارها فى الجدران ، وهى تنخرط فى بكاء حار .. وأحسست بتعاطف شديد مع أحزانها ، فقد جرّبت هذا الشعور من قبل .. لقد عشت من قبل إحساس الأب الملتاع بفقده لابنته ، وأعرف مدى قسوته على النفس ؛ لذا لم أحاول أن أحول بينها وبين التفريج عن حزنها الجليـــل ، بذلك

البكاء الحار ، وفضّلت أن أنتظر حتى تهدأ نفسها قليلًا ، ثم اقتربت منها قائلًا :

ــ مدام (وفاء) .. إننى أحترم حزنك ولوعتك على ابنتك ، فأنا مثلك فقدت ابنتى وزوجتى ، اللتين ماتتا غرقًا .. وربما هذا هو السر فى عدم إضافتى أية أشياء جديدة ، أو أثاث حديث ، للمنزل الذى اشتريته منك ، فأنا لم أحضر إلى هذا المنزل إلا مرة واحدة ، أو مرتين على الأكثر ، وبعدها توقَّفت عن الحضور إلى هنا ، كما توقَّفت عن ممارسة العمل ، وعن أشياء أخرى كثيرة ، إذ أننى فُجعت بفقدى لابنتى وزوجتى ، بعد شهور قليلة من شرائى للمزرعة والمنزل ، وتمنيت بعدها أن ألحق بهما بوسيلة أو أخرى ، وكانت وسيلتى التى حاولت أن استخدمها فى ذلك الوقت ، هى الانتحار البطىء ، والغرق فى الحزن ، والتوقُّف عن متابعة الرغبة فى الحياة ، ولكن الحياة لايمكن أن تتوقف ، والحزن لابد له من نهاية ، ولابد من الرضوخ لمشيئة القدر ومواصلة طريقنا من جديد .. هذا هو دستور الحياة ، الذى وضعه لنا الخالق ، لذا لابد من أن تنفضى ثوب الحزن عنك ، ولاتجعلى من عودتك إلى هذا المكان تجديدًا لذكرى أليمة ، فلا أعتقد أن هذا هو ما أرادته لك ابنتك

الراحلة ، فهذا المكان ظل يرتبط فى مخيلتها بذكرى أيام سعيدة ، وأرادت منك أن تعودى إليه ، لكى لاتحرمى من هذه السعادة ، التى عرفتها فى ذلك المكان ، والتفتت إليه قائلة من خلال دموعها :

— وكيف أمكنك أن تنسى ؟.. لو كنت حقيقة قد عشت ذلك الشعور ، الذى أحسه منذ فقدت ابنتى ، وعرفت لوعة الفراق ، لما أمكنك النسيان ، وقلت لها بصوت خفيض :

— ومن قال لك إننى نسيت ؟ إن ابنتى وزوجتى سيبقيان فى عقلى وقلبى دائمًا ، ولن يمكننى نسيانهما أبدا ، ولكن ما أتحدث عنه هو نسيان المحنة ، والتغلب على الأحزان ، وعدم الإغراق فى الذكرى التى تجدد الآلام ، ومع ذلك فلا أستطيع أن أقول لك إننى قد نجحت فى ذلك تمامًا .

أولتنى ظهرها ، دون أن تنطق بكلمة ، كان من الواضح أنها غير مستعدة للإنصات إلىّ ، وأن المكان قد جدد لها ذكرى فراقها لابنتها ، حاملًا معه الجانب المؤلم من هذه الذكرى ، وكان من المتعين علىّ أن أنصرف فى هذه اللحظة ، فقلت لها :

— سأنصرف الآن ، ثم نعود لنتفق على شئون العمل فيما بعد .

ولكنها لحقت بى ، وفى عينيها نظرة خوف كبيرة ، قائلة :

— لا .. لا أستطيع أن أبقى وحدى فى هذا المكان .. لقد أصبح المنزل موحشًا للغاية ، وحزنى سيقتلنى لو بقيت بمفردى أجتر الذكريات .

ابتسمت لها ابتسامة مشجعة قائلًا :

— هل رأيت ؟ هاأنتذى تخافين أحزانك وتكرهينها ، وهذا يعنى أنك تريدين أن تتحررى منها ، وهذا أمر مشجع .

قالت لى :

— لقد كانت تعمل لدى هنا امرأة تدعى ....

قاطعتها قائلًا :

— (أم إبراهيم) .. لقد ألحقتها بالعمل فى جنى محصول الفراولة ، بعد شراء المنزل ؛ نظرًا لعدم حاجتى إليها للعمل فى ذلك المنزل ، بعد أن توقفت عن الحضور إليه .. أأنت بحاجة إليها ؛ لكى تؤنس وحدتك فى هذا المنزل ؟

أومأت برأسها لتؤكد ذلك ، فقلت :

— حسنًا .. ستكون معك هذه الليلة ، وسوف أدبر الأمر بحيث تتوقف عن العمل فى المزرعة ، وتعود للعمل فى هذا المنزل .

وقبل أن أفتح باب المنزل استعدادًا للانصراف ، وجدتها تتعلّق بذراعى كطفلة خائفة ، فقلت لها مطمئنًا :

ــ اطمئنى .. لن أغادر البلدة قبل أن أحضر لك (أم إبراهيم) .

أبعدت يدها عن ذراعى ، كما لو كانت قد تنبّهت إلى أنها أتت بتصرف غير لائق ، قائلة :

ــ أردت فقط أن أشكرك ؛ فقد قدّمت لى الكثير من المساعدة ، وكنت عطوفًا معى للغاية .

ابتسمت قائلًا ، وأنا أفتح باب الفيلا :

ــ هل يمكننى أن أطالب بشىء فى مقابل هذا ؟

نظرت إلىّ بتوجّس ، وهى تتراجع خطوتين إلى الوراء ، قائلة وفى لهجتها شىء من الحذر :

ــ بالطبع .. لو كان باستطاعتى .

قلت لها وأنا أحتفظ بابتسامتى :

ــ أعتقد أن ذلك الشىء فى استطاعتك .

قالت متسائلة :

ــ وما هو ؟

ــ دعينى أر ابتسامتك قبل أن أنصرف .

ظلّت صامتة تحدّق فىّ ، فقلت لها مشجّعًا :

ــ هيا .. دعينا نرسم ابتسامة على وجوهنا ، لنحارب بها أحزاننا .

بدا أنها تبذل جهدًا كبيرًا ، حتى افتر ثغرها عن تلك الابتسامة ، التى شيعتنى بها قبل رحيلى ، وكانت أجمل ابتسامة رأيتها فى حياتى كلها ..

* * *

دخلت إلى مكتبى ووجهى يحمل ابتسامة كبيرة ، وأخذت أتبادل التحيات مع الموظفين العاملين فى شركتى ، وأداعب سكرتيرتى ببعض العبارات المرحة ، والوجوه تحدّق فىّ بدهشة ؛ فهم لم يرونى أبدًا بمثل هذه الحالة المعنوية المرتفعة ، منذ شهور طويلة .. ونزعت عنى سترتى ؛ لأعلّقها على المشجب الموجود داخل غرفتى ، وأنا أترنم بأغنية مرحة ، دون أن أنتبه إلى أن (مدكور) كان جالسًا داخل الغرفة ، على المقعد الكبير فى أحد الأركان ، وما أن لمحته ، وأنا أهمّ بالجلوس أمام مكتبى ، حتى قلت له :

ــ (مدكور) ؟! أأنت هنا ؟

قال وهو يغادر مقعده :

— إننى أنتظرك منذ نصف ساعة .. لقد تأخرت عن موعدك اليوم .

ابتسمت له ، وأنا اتخذ مجلسى قائلًا :

— معذرة يا صديقى العزيز .. لقد صحوت متأخرًا .

قال ساخطًا :

— هل نسيت أننا لابد أن نكون فى الجمرك فى العاشرة ؟

قلت وأنا أسترخى فى مقعدى :

— اذهب أنت .. لن أستطيع الذهاب معك اليوم .

نظر إلىَّ بتعجُّب قائلًا :

— (خالد) .. لقد اتفقنا على الذهاب معًا .. هناك بعض التوقيعات تحتاج لوجودك .

رددت عليه قائلًا :

— وما فائدة التوكيل الذى فتحته لك ؟.. تصرَّف يا (مدكور) .. أهذه أوَّل مرة تتصرف فيها بمفردك ؟

قال ، وقد بدا له تصرُّفى غريبًا :

— لا .. ولكن فى المرات السابقة كانت توجد أعمال أهم ، تقتضى وجودك فى أماكن أخرى ، أو فى المكتب ؛ لأن تصدير البضائع واستيرادها يحتاج بالضرورة لوجودك فى

المنطقة الجمركية ؛ للإشراف على الأمر بنفسك .

قلت بلهجة مرحة :

— ومن قال إنه لاتوجد لدى أعمال أهم ، تقتضى تواجدى هنا ؟ ثم لاتبالغ فى الإقلال من شأنك .. إنك تجيد تصريف تلك الأمور ، على نحو أفضل منى .

نظر إلىَّ متشكِّكًا ، وهو يقول :

— تُرى ماهى تلك الأعمال الأهم ، التى تقتضى بقاءك هنا ؟ هل نسيت أننى ملمّ تمامًا بنشاط الشركة وأعمالها ؟

قلت متظاهرًا بالضيق :

— (مدكور) .. لقد أصبحت ثقيلًا على نحو غير محتمل ، بتساؤلاتك السخيفة هذه .. هل نسيت أننى بصدد إعداد ميزانية جديدة ، لتكلفة الإنتاج الخاصة بمزرعة (قليوب) ؟

هز رأسه ، قائلًا بخبث :

— آه .. فهمت .. وطبعًا إعداد هذه الميزانية الجديدة يقتضى أن تلتقى بشريكتك فى إدارة شئون المزرعة .

قلت وأنا أسعى متجنبًا نظراته الخبيثة ، بالتطلع إلى الأوراق الموضوعة أمامى :

— بالطبع .. ألسنا شريكين ؟

قال متهكمًا :

ــ لا اعتقد أنك كنت بحاجة ، فى أى وقت من الأوقات ، لوجود شريك معك ، خاصة بالنسبة لمزرعة صغيرة كهذه .

قلت له :

ــ لقد قدمت لتلك السيدة مساعدة ، كانت بحاجة إليها ، دون أن أغفل الجانب الاقتصادى ، فخبرتها السابقة فى تصريف شئون تلك المزرعة ، بالإضافة إلى إحساسها بالمسئولية ، والرغبة فى الربح ، باعتبارها شريكة ، سيعود علينا جميعًا بفائدة شاملة .

قال وهو مستمر فى تهكمه :

ولا أعتقد أن هذا هو أيضًا الدافع الرئيسى لقبول هذه المشاركة .

قلت ، وفى صوتى رنة غضب :

ــ ما السبب الذى تعتقده إذن يا (شرلـــوك هولمز) العصر ؟

ردّ قائلًا :

ــ السبب الذى يجعلك تبدو بمثل هذه الحالة المعنوية المرتفعة ، والذى جعلك تأتى إلى المكتب متأخرًا عن موعدك ، وأنت تترنم بإحدى الأغنيات .

قلت له :

ــ ماذا تقصد ؟

أجابنى قائلًا :

ــ أقصد أن تغير حالك لم يعد خافيًا على أحد ، وأنه يبدو أنك فى طريقك إلى الحب يا صديقى .

قلت ، وكأننى أحاول دفع تهمة عنى :

ــ استنتاجك فاشل تمامًا يا عزيزى ، ومراهقتك المتأخرة تصوّر لك أشياء خيالية ، فتقديم بعض المساعدة للآخرين ، دون الإخلال بالعائد الاقتصادى ، لا يعنى ذلك الهراء الذى تتحدث عنه ، كما أنه لا يوجد مايمنع من أن أكون فى حالة معنوية مرتفعة .. والآن عليك أن تسرع بالذهاب إلى الميناء ، للانتهاء من شحن البضائع ، فأنا أعتقد أن هذا سيكون أفضل بكثير من التحدث عن هذه السخافات .

قال وهو يهمّ بفتح باب الحجرة :

ــ حسنًا يا صديقى .. ولكن إذا وافقت ، فأنا مستعد للمراهنة على أنك فى طريقك إلى الوقوع فى الحب ، مع ذات العينين الزرقاوين ثم أسرع بمغادرة الغرفة قبل أن أنطق بكلمة واحدة :

* * *

٦ — شعور لا أفهمه ..

قالت وهى تضع أمامى على المكتب عددًا من الأوراق :

— هذه هى الميزانية المطلوبة ؛ للصرف على المزرعة ، وهى تشمل الأسمدة والعمالة وبعض البيانات الأخرى ، التى يتعيَّن عليك مراجعتها .

قلت لها ، وأنا أتأمل ملامح وجهها الجميلة :

— لقد كنت صاحبة هذه المزرعة من قبل ، ولا شك أنك على دراية تامة بما تحتاجه ، حتى يكون إنتاجها صالحًا للتصدير ؛ لذا فلا أظن أننى بحاجة إلى إجراء أية مراجعة .

نظرت إلىَّ بدهشة ، قائلة :

— أنا الذى يحيرنى طلبك لى بإعداد ميزانية لإنتاج المزرعة ، فأنا الآن لم أعد مالكة لهذه المزرعة ، وإنما مجرد شريكة بنسبة ضئيلة من الأرباح .

قلت سريعًا :

— والمسئولة عنها ، والمشرفة على إدارتها أيضًا .

قالت وفى صوتها شىء من عدم الاقتناع :

— وهذا أيضًا يحيِّرنى ؛ فما وجدته فى المزرعة بعد عودتى إليها ، يجعلك بغير حاجة حقيقية إلىّ .. لقد ارتفعت نسبة الإنتاج بشكل كبير ، والمعالجة التى أضافها المهندسون الزراعيون لمحصول الفراولة ، جعلتها على درجة عالية من الجودة ، ولديك العمالة الكافية والفنيون المهرة .. لقد أصبحت حقًّا مزرعة مخصّصة للتصدير ، لا للسوق المحلى ، كما كانت حينما كنت أمتلكها أنا وزوجى ، وهى تعمل بكفاءة عالية للغاية ، وفقًا لميزانية تتعلّق بالتصدير ، بما يتطلّبه ذلك من مصاريف شحن وتعبئة .. إلخ .. لذا فلم تكن لك بى حاجة لإعداد ميزانية المزرعة ، وإدارتها التى عهدت بها إلىَّ .

قلت محاولاً إبعاد هذا الشعور عنها :

— لماذا تحاولين الإقلال من شأن نفسك ؟ إن هذه المزرعة بحاجة إلى شخص يحبها أكثر من أى شىء آخر .. شخص يشعر أنها ذات صلة قوية ورابطة متينة به ، لكى يخاف عليها ، ويرى شئونها على النحو الواجب .. لقد تغيَّرت المزرعة حقاً عن تلك الفترة ، التى كنت تمتلكينها فيها ، ولكننى أعتقد أنها لا تدار بالكفاءة المطلوبة ، ولا تحقق الربح الذى أطمح إليه ، وأعتقد

أنك أفضل من يحقق لى ذلك الطموح ، خاصة وأنك ستنالين نصيبك منه .

نظرت إلىَّ بتمعّن برهة من الوقت ، ثم قالت :

ـ هل أنت واثق ، أن هذا هو السبب الوحيد؟ ألم يكن لقصتى دخل فى الأمر؟ أعنى أليس دافعك لهذا هو الشعور بالشفقة؟

ابتسمت قائلًا :

ـ لا أنكر أننى تعاطفت مع قصتك ، وأنت تعرفين لماذا ، ولكن تأكّدى أن هذا لم يكن الدافع الوحيد لإشراكك فى أمر هذه المزرعة .

سمعت فجأة أزيز آلة الاتصال الداخلى فوق مكتبى ، فضغطت على الزر الموضوع أمامى ، قائلًا :

ـ أهناك شىء يا (سعاد)؟ .

قالت لى :

ـ أردت أن أذكر سيادتك بالاتصال هاتفيًّا بـ (مدحت) بك ، حسب الموعد المحدد ، فالساعة الآن العاشرة والنصف .

ـ حسنًا .. حسنًا .. سوف أتصل به .

عادت تقول :

ـ ولديك موعد مع رئيس شركة التجارة الدولية ، فى الحادية عشرة .

قلت بضيق :

ـ حسنًا .. إننى أذكر هذا جيِّدًا .

وجدتها تتأهّب للانصراف ، قائلة :

ـ معذرة .. يبدو أننى عطّلتك عن أعمالك .

قلت وأنا أنفى ذلك ، وقد شعرت بغصة ؛ لتأهّبها للانصراف بهذه السرعة .

ـ أبدًا .. أبدًا .. مازال لدىَّ متسع من الوقت .. أرجوك تفضّلى بالجلوس .

قالت وهى تنظر إلىَّ باستغراب ، قبل أن تعود للجلوس :

ـ ولكننى أعتقد أننا قد انتهينا من تقديم ميزانية المزرعة كما طلبتها .

قلت بسرعة ، وأنا أقلِّب الأوراق الموضوعة أمامى :

ـ ولكننا لم ننته من مراجعتها بعد .

ردَت قائلة :

ـ لقد ظننت أن سيادتك قلت : إن الأمر ليس بحاجة إلى مراجعة .

شعرت بالحرج من قولها هذا، فقلت :

ـــ نعم .. نعم .. ولكننى لم أعتمدها بعد ، حتى يتاح الحصول على المصاريف اللازمة .

مطّت شفتيها قائلة :

ـــ حسنًا .. يمكننى أن أنتظر ، حتى تنتهى من اعتمادها لو أردت .

أخذت أقلّب الأوراق سريعًا ، دون أن أقرأ كلمة واحدة ، أو رقمًا واحدًا من السطور فيها .. كنت مرتبكًا حقيقة ، على نحو لم أعهده فى نفسى من قبل ، كما لو كنت مقبلًا على امتحان عسير ، وفجأة رفعت عينىّ عن الأوراق الموضوعة أمامى ، قائلًا :

ـــ (وفاء) .. هل تقبلين دعوتى لك على الغداء؟

خدجتنى بنظرة غريبة ، وبدا على وجهها الضيق والانفعال المكبوت لحظة ، ثم تبدّلت ملامح وجهها ، وأصبحت أقل انفعالًا وهى تقول :

ـــ أشكرك .. ولكننى لا أعتقد أننى أستطيع قبول مثل هذه الدعوة .

قلت لها :

ـــ لماذا؟ لا أعتقد أنك مرتبطة بشىء ، خلال فترة الغداء .

أجابتنى بوجه جامد الملامح :

ـــ أستاذ (خالد) .. لا تغير فكرتى عنك .

قلت متسائلًا :

ـــ وما الذى ظننته فىَّ؟

نهضت واقفة مرة أخرى ، وهى تقول :

ـــ لا شىء ، ولكننى أفضّل أن تبقى علاقتنا قائمة على مقتضيات العمل فقط ، دون توجيه مثل هذه الدعوات .

نهضت بدورى ، وأنا أدور حول مكتبى فى حرج ، لأقول :

ـــ ولكنى لم أكن أقصد شيئًا بدعوتى هذه ، مما يدور فى ذهنك .

قالت بعصبية :

ـــ إذا كنت تظن أنه يمكنك ، فى مقابل تلك الخدمة ، التى قدمتها لى ، أن تدعونى مرة إلى (كافيتريا) ، ومرة أخرى إلى مطعم ، ثم مرة ثالثة إلى سينما ، فأنت مخطئ .. لقد قبلت أن أصحبك فى المرة السابقة إلى تلك (الكافيتريا) ؛ لأنك وعدتنى بمناقشة أمر المزرعة والمنزل فقط .

قلت وفى صوتى رنة عتاب :

ــ يؤسفنى أن يكـــون هذا هو ظنك فىَّ . وتحركت خطوتين فى اتجاه الباب ، ثم ترددت ، وعادت مرة أخرى إلى حيث أقف ، قائلة :

ــ أعتذر عما قلته .. يبدو أننى إنسانة سيئة الظن فعلًا .. ولكن اعذرنى ، فقد رأيتك تتودَّد إلىَّ بشكل لم أعهده فى أشخاص حسنى النية من قبل .. ذلك المنزل ، ومشاركتك فى المزرعة ، واهتمامك بى ، ودعوتك لى لتناول الغذاء معك .. لقد ظننت أن ذلك من باب العطف أوّلًا ، ثم الآن ، عندما وجّهت إلىَّ تلك الدعوة ، ظننت أن تودّدك هذا قد ينطوى على معنى آخر .

نظرت فى عينيها ، قائلًا :

ــ لا يمكنك أن تظلى متشكّكة إزاء كل تصرّف ، وكل دعوة توجه لك على هذا النحو .

رأيت فى عينيها نظرة تأثر ، وهى تقول :

ــ أعذرنى ؛ فقد قابلت بعد موت زوجى الكثيرين ممن يطمعون فى أرملة وحيدة ثرية .. كانوا يتودّدون ، وينتقون الكلمات ، ويوجهون الدعوات على هذا النحو ، من أجل تحقيق أهدافهم الدنيئة .

قلت ، وقد أسعدنى أن تتحدث معى بهذه الثقة وذلك التبسيط :

ــ ألم يكن بعضهم يهدف إلى الزواج ؟

قالت ، كما لو كان سؤالى قد أدهشها أو أحرجها :

ــ بالطبع .

هززت أكتافى قائلًا :

ــ ومتى كان الزواج هدفًا دنيئًا ؟

قالت سريعًا ، دون أن تخطئ الإجابة :

ــ عندما لا يدخله الحب ، ويكون أساسه المال ، أو الاستيلاء على الثروة الصغيرة التى تركها زوجى لابنته .

قلت ، وقد استرددت بعض الثقة فى نفسى ، بعد أن أحرجتنى برفضها :

ــ لا أعتقد أنك تظنين أننى ممن يطمعون فى مالك ، خاصة وأن لديك فكرة واضحة عنى .

أجابتنى ، وعلى وجهها حمرة خجل :

ــ أطماع الرجال لا تقتصر على المال فقط .

قلت لها معاتبًا :

ــ هأنتذى تسيئين الظن فىَّ مرة أخرى ؛

هزّت رأسها ، قائلة :

ــ لست أقصدك أنت ، ولكننى أتحدث عن الآخرين .

قلت لها :

ــ إذن فما المشكلة فى أن أوجّه دعوة لتناول الغذاء إلى شريكتى ، خاصة بعد أن صرنا تقريبًا صديقين .

وقفت صامتة ، دون أن تدرى ماذا تقول ، وعاد أزيز آلة الاتصال الداخلى يتعالى فوق مكتبى ، فضغطت على الزر ، قائلًا بتبرّم :

ــ ماذا أيضًا يا (سعاد) ؟

أجابتنى سكرتيرتى :

ــ (مدحت) بك يريد الاتصال بك ، ويبدو أنه قلق ، لعدم اتصالك به ، بحسب الموعد المحدود .. هل أوصلك به ؟

صمتّ برهة ، وأنا أفكّر ، ثم قلت :

ــ حسنًا .. دعينى أحدّثه .

قالت (وفاء) سريعًا :

ــ حسنًا .. سأنصرف أنا .

ولكننى استبقيتها بإشارة من يدى ، قائلًا :

ــ أرجوك .. انتظرى .

بقيت واقفة فى مكانها ، وأنا ألتقط سمّاعة الهاتف ، قائلًا :

ــ نعم يا (مدحت) .. نعم .. لقد كلّفت (مدكور) تولى عملية الشحن .. آسف لتأخرى فى الاتصال بك ، ولكن بعض الأعمال استغرقتنى لبعض الوقت .

كنت أحدثه وعينى مسلّطة عليها ، وكأننى أخشى أن تغيب عن نظرى ، أو أغفل عنها لحظة ، فأجدها قد تسلّلت مغادرة الحجرة ، وعدت أقول لمحدثى ، دون تركيز حقيقى :

ــ حسنًا .. حسنًا .. سأتصل بك فيما بعد ، للاتفاق على كل شىء ، فأنا الآن مشغول .

ووضعت سمّاعة الهاتف والتفتّ إليها قائلًا :

ــ إنك لم تجيبى سؤالى بعد .

سألتنى بدهشة :

ــ أى سؤال ؟

قلت محاولًا اصطناع ابتسامة :

ــ ما هى المشكلة ، التى تحول دون دعوتك إلى الغذاء ؟

لا بد أنها قد لاحظت أننى كنت أحدّق فيها طوال الوقت ، وأننى لم أرفع عينى عنها ، حتى فى أثناء الاتصال الهاتفى ، فتراجعت

إلى الوراء خطوتين ، وفى عينيها نظرة متشككة ، ثم قالت :

ــ أستاذ (خالد) .. هل أسألك سؤالا ، وتجيبنى عنه صراحة ؟

عقدت ذراعىَّ أمام صدرى ، وأصبحت ابتسامتى حقيقية هذه المرة ، وأنا أقول :

ــ سلى ما شئت .

سألتنى بعينين ثاقبتين :

ــ ما الذى تريده على وجه التحديد ؟

قلت وأنا أفك الارتباط بين ذراعىَّ ، واضعًا إحدى يدىّ فى جيبى :

ــ حسنًا .. لقد أردت إجابة صريحة .. لقد شعرت بشىء من التعاطف معك ، بعد الذى رويته لى عن ابنتك ، وهذا حقيقى .. كما أننى سعيت لكى تكونى شريكتى فى تلك المزرعة ، عن اقتناع تام بأننى سأستفيد من خبرتك فى إدارتها ، وهذا أيضًا حقيقى ، ولكن هناك شيئًا آخر لا أفهمه ، يجعلنى مشدودًا إليك ، ويشعرنى بأنه هناك نوعاً من التقارب يجمع بيننا .. إنك جميلة جدًا بلا شك ، وهذا شىء له تأثيره على أى رجل ، ولكن صدقينى .. ليس الجمال وحده على الرغم من

مؤثراته على نفسى ، هو الذى يجذبنى إليك على هذا النحو الذى لا أفهمه .. هناك شىء آخر أكثر تأثيرًا ، يحول بينى وبين قدرتى على مقاومة شعورى هذا .

عاد إلى وجهها جموده ، وهى تقول :

ــ هذا ما كنت أخشاه .

قلت سريعًا ، وبلهجة جادة :

ــ إذا كانت خشيتك هذه نابعة من تلك الظنون ، التى تظنينها فى الرجال ، الذين كانوا يحومون حولك ، فأنت مخطئة .. ما أردت قوله قلته بصراحة ووضوح شديدين ، ولم أكن أهدف من ورائه إلى غرض آخر أخفيه فى نفسى .

وكأنما أغضبنى أن أرى تلك النظرة المتشككة فى عينيها ، فقلت وأنا أحتفظ بلهجتى الجادة :

ــ والآن .. إذا لم تكن لديك أسئلة أخرى يمكنك الانصراف .

تحركت نحو الباب بخطوات متثاقلة ، ثم فتحته وهى تهم بالخروج ، ولكنها تراجعت إلى الداخل مرة أخرى ، وأنا أعاود الجلوس أمام مكتبى ، ووقفت مترددة لحظة ، ثم قالت :

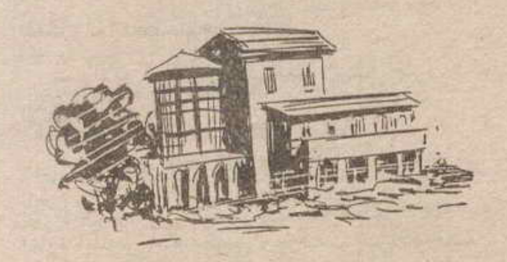
— إننى أتناول غدائى فى الثالثة تمامًا ، فهل يناسبك هذا الموعد ؟

تغيرت ملامح وجهى الغاضبة ، وأنا أقول محاولًا مقاومة ابتسامة على شفتىَّ :

— إنه نفس الموعد الذى أتناول فيه غدائى .. لذا فهو يناسبنى تمامًا .

ولم يضف أحدنا حرفًا آخر .

* * *



٧ — لمسة حب ..

كنت قد اتفقت معها على أن نلتقى عند ناصية أحد الشوارع الرئيسية ، حيث أخبرتنى بأنها ستذهب لشراء بعض الأشياء من المدينة ، ثم نلتقى فى الثانية والنصف ، لنتوجّه إلى ذلك المطعم ، الذى رشحته لتناول الغذاء معًا ، وعندما وصلت بسيارتى ، إلى تلك الناصية ، لم تكن موجودة فى الموعد المحدود ، مما اضطرنى إلى أن أدور بالسيارة حول المكان ، حتى لا أتعرّض للمخالفة ، نظرًا لعدم السماح بوقوف السيارات ، فى ذلك الشارع الرئيسى ، وبعد مرور عشر دقائق ، وعدة دورات للسيارة ، رأيتها مقبلة ، وهى تخطو خطوات بطيئة ، فى اتجاه الناصية التى حددتها لها ..

كنت قد بدأت أقلق ، وإن كنت لا أدرى إذا ما كان مبعث قلقى هذا هو تأخرها ، أم حضورها المتوقع ، فعندما استقللت سيارتى ، إثر انتهائى من عملى فى الشركة ، أحسست وأنا فى الطريق إليها بشىء من عدم الارتياح ..

لقد بدوت متلهفًا على توجيه تلك الدعوة لتناول الغداء معًا ، حينما رأيتها فى مكتبى هذا الصباح على الرغم من أننى لم أخطط لذلك ، وأسعدنى أننى نجحت فى الفوز بموافقتها ، مع كل ما كانت تبديه من تحفظات وممانعة ، وبدا الأمر بالنسبة لى كما لو كان بداية لنصر عاطفى ، على مشاعر صلبة لامرأة شديدة المراس ، ولكن حينما فكرت فى الأمر قليلًا ، أحسست أننى أدفع بنفسى رويدًا .. رويدًا نحو مشاعر مبهمة ، لا أعرف إلى أين تقودنى ، وإن تصوير الأمر على أنه انتصار عاطفى ، هو نوع من إرضاء لغرور الرجل فى أعماق ، فالحقيقة هى أننى عاجز عن مقاومة الانزلاق فى ذلك الطريق المجهول ، الذى يقودنى إلى تلك المرأة .. إننى لم أجرّب الحب فى حياتى ، حتى فى سنوات المراهقة .. كانت هناك بعض العلاقات العابرة ، التى يسمونها فى شبابى ، ولكنها لم ترق أبدا إلى تلك العاطفة ، التى يسمونها الحب .. وكانت هناك أيضاً زيجة ناجحة ، ربما حملت فى طياتها شيئًا من هذه العاطفة ، ولكنها لم تنطو أيضًا على الحب بمعناه الشامل ، وباندفاعاته الجامحة .. لقد كنت أخشى دائمًا أن أقع فى أسر تلك العاطفة ، التى طالما سمعت عما يمكن أن تفعله بمن ينزلقون إلى شباكها .. إن المرء يفقد الكثير من

اتزانه ، وسيطرته على نفسه ، وعلى سلامة تفكيره ، وذلك هو الشىء الذى لا أرضاه لنفسى أبدًا .. إن أفعالى ظلت تخضع دائمًا لما يمليه علىّ عقلى ، وعقلى كان يقودنى دائمًا إلى النجاح ، وإلى الطريق الصحيح ، فضلًا عما تفعله عذابات الحب بأصحابها ، خاصة عندما تكون العواطف غير متكافئة .. لوعة ، وحزناً ، وألمًا .. إننى لم أكن بارد الإحساس بطبيعتى ، على الرغم من عقلانيتى ، ولقد جربت المعاناة والألم ، كما لم يعرفهما أحد ، بل وتمنيت الموت فى بعض الأوقات ، حينما حرمنى القدر من ابنتى وزوجتى .. ولكن هذا هو الألم الوحيد ، الذى يستحق أن يعيشه الإنسان ، وهذا هو الحزن الذى يمكن أن يكون له ما يبرّره ، فى حياة المرء منا .. فقد الزوجة والأبناء .. أن يجد المرء نفسه فجأة وقد ضاعت منه أسرته ، وأصبح وحيدًا فى هذه الدنيا ، بعد أن كان يعمل ويكد ويسعد من أجلهم ، أما عذاب الحب ، فهو عذاب تافه ، تدفعنا إليه مشاعر صبيانية ، تُضعف من صلابة الرجل ، ولا تستحق منه سوى أن يخجل من نفسه ، ومع ذلك فقد كان شعورى المبهم هذا بعدم الارتياح ، والذى قادنى إلى كل تلك الأفكار الغريبة ، متساويًا تمامًا مع رغبتى فى رؤيتها ،

والالتقاء بها .. وسرعان ما انقلب قلقى من التفكير فى تلك المقابلة ، إلى قلق من نوع آخر ، لتأخرها عن الحضور ، وعندما حضرت ، ورأيتها مقبلة نحوى ، عاودنى الشعور بالخوف والاضطراب ، ممتزجًا بمشاعر الفرحة ، لأنها لم تخيب آمالى ، وجاءت كما تواعدنا .. حقًا لقد جعلتنى هذه المرأة أجرِّب مشاعر وأحاسيس لم أعرفها فى حياتى من قبل ..

وفتحت لها باب السيارة ، وأنا أشير إليها بالركوب ، ولكنها بدت مترددة ، وهى تقف أمام الباب المفتوح ، ونظرت إليها بدهشة قائلًا :

ـ لماذا لا تركبين؟

كانت فى عينيها نظرة خوف وتردد ، مما دفعنى لأن أقول لها بخشونة :

ـ ألا يكفى أنك قد جئت متأخرة .. هل ستركبين أم لا؟

دفعت بنفسها داخل السيارة إلى جانبى ، وأدرت محرك السيارة وعينى مسلطة على الطريق ، دون أن ألتفت إليها ..

كنت لا أزال غاضبًا من تصرفها هذا ، ومحاولتها التراجع عن لقائى ، ولكن هذا لم يمنعنى من أن أختلس النظر إليها ، فى المرآة المثبتة أمامى داخل السيارة ، بين الحين والآخر ،

ووجدتها تختلس النظر إلىَّ بدورها ، دون أن يفارقها ذلك الخوف المطل من عينيها ، ولكن ما أن التفت إليها ، حتى تسرع بالنظر إلى الطريق محاولة إخفاء نظراتها عنى .

وقلت لها ، دون أن أنظر إليها :

ـ آسف لأننى تحدثت إليك بهذه الخشونة ، ولكن ضايقنى كثيرًا ، أن أشعر بأننى قد فرضتُ نفسى عليك ، فلست مضطرة لمشاركتى الغداء ، إذا لم تكونى راغبة فى ذلك .

جاء ردها مثيرًا لانفعالى ؛ إذ وجدتها تقول :

ـ حسنًا .. يمكنك أن تنزلنى هنا .

أوقفت السيارة بعصبية ،وأحدث إيقافها صريرًا عاليًا ، وأنا أقول :

ـ حسنًا .. تفضلى .

خرجت من السيارة مطأطئة الرأس . فى حين واصلت أنا طريقى بالسيارة ، متجاوزًا سرعتها العادية ، دون أن أحاول الالتفات خلفى ..

لم أتناول غذائى فى هذا اليوم ، بل وصلت إلى منزلى متوتر الأعصاب ، شعرت بجرح فى كبريائى .. كنت غاضبًا ؛ لأن

دعوتى رُفضَتْ على هذا النحو ، ولم أحاول أن ألتمس لها الأعذار ، وأحسست أننى غير راض عن نفسى ، ولا عن الأمر منذ بدايته .. لقد انتهيت لتوى من مرحلة شديدة القسوة فى حياتى ، واسترحت لعودتى إلى حياتى العادية مرة أخرى ، أمارس عملى ، وأصرف أمورى ، وفقا لذلك التنظيم الذى تأقلمت معه طوال حياتى ، دونما قلق وتوتر ، من ذلك النوع الذى يؤثِّر فى الوجدان .. ولكن هأنذا قد جلبت لنفسى المتاعب ؛ بتفكيرى فى تلك المُرأة ، ومحاولتى إقحامها فى حياتى ..

ودفعنى غضبى إلى التفكير فى فض شركتى معها ، والتخلص منها بصورة نهائية ، حتى أوفِّر على نفسى ذلك الإزعاج ، ولكن حينما هدأت قليلًا ، وجدتنى ألوم نفسى بشدة على تفكيرى هذا ، فليس فى الأمر مايدعو إلى كل هذا الغضب والتفكير الانفعالى ، الذى يصل إلى حد القسوة .. لقد دعوتها لمشاركتى الغذاء ، ولم تلق دعوتى لها شيئًا من القبول ، لأسباب خاصة بها ، ولا يوجد ما تلام عليه من أجل ذلك ، فمن حقها أن تقبل أو ترفض دعوة توجَّه لها ، ويتعيَّن علىَّ أن أتقبَّل الأمر بطريقة أكثر بساطة ، دون ترك العنان

لانفعالاتى المندفعة على هذا النحو .. وحاولت أن أخفى عن نفسى ، وأنا أحاول أن أهون عليها الأمر ، الواقع الحقيقى لغضبى وانفعالى المتزايد ، وهو أن رفضها لم يأت جارحًا لكبريائى فقط ، ولكن لعاطفتى أيضًا ، التى أصابتها بلمسة من الحب .

وتناولت الهاتف لأتصل بـ (مدكور) فى منزله ، قائلًا :

ـ (مدكور) .. هل انتهيت من إجراءات الشحن؟

رد قائلًا :

ـ أين كنت؟ لقد حاولت الاتصال بك منذ عدة ساعات ، دون أن أجدك .. لقد انتهى كل شىء على ما يرام .

قلت له ، دون أن أعبأ بمناقشته فيما تم :

ـ ما رأيك لو سهرنا هذه الليلة معًا بالخارج؟

أجابنى قائلًا :

ـ نسهر معًا مرة أخرى ؟.. لا ياصديقى لن أفعلها ثانية ، بعد النهاية التى آلت إليها سهرتنا السابقة .

وجدتنى أقول دون اكتراث :

ـ حسنًا .. يمكنك أن تنسى الأمر .. فقد كان مجرد خاطر طرأ لى .

سألنى :

— (خالد) .. ماذا بك؟ أهناك أمر يضايقك؟

رددت عليه ، قائلًا :

— لا .. لاشىء .. مجرد شعور بالملل والرتابة .

قال لى :

— على كل حال ، لو أردت أن نلتقى ونذهب إلى ....

ولكننى قاطعته ، وقد بدا لى اقتراحى سخيفًا :

— لا .. انس الأمر ؛ فلن أكون بالرفيق المسلِّى ، ولا أعتقد أن سهرتنا هذه ستكون أفضل من سابقتها .

قال لى :

— عمومًا .. لو شعرت أنك بحاجة إلىّ فى أى وقت ، يمكنك الاتصال ، فلن أغادر المنزل ، وإذا أردت أن تحضر إلىّ ، فسوف تجدنى فى انتظارك .

قلت له :

— حسنًا .. وداعًا .

وضعت سماعة الهاتف ، ثم أشعلت لنفسى سيجارًا ، وتمدّدت على الأريكة لأشاهد (التليفزيون) ، وبعد قليل وجدتنى أشرد بتفكيرى عما يدور أمامى على الشاشة الصغيرة ..

لقد كانت (وفاء) تلحّ على تفكيرى بشدة ، ووجدتنى أسأل نفسى : تُرى ماذا تفعل الآن؟ .. هل عادت إلى (قليوب)؟ وهل هى موجودة الآن فى منزلها؟ أم أنها قضت هذه الليلة فى (القاهرة) لدى أحد أقاربها أو معارفها؟ .. ألا يخالجها الآن شعور بالأسف أو الندم ، لعدم تلبيتها دعوتى؟

وضايقنى أنها عادت تلحّ على تفكيرى على هذا النحو ، وضايقنى أكثر أننى منذ أن رأيتها لم أعد أفكر مطلقًا فى ابنتى وزوجتى اللتين فقدتهما ، وشعرت أن ضميرى يحاسبنى على هذا النسيان ، والتحوّل بمشاعرى إلى هذه الوجهة ..

وغادرت مكانى على الأريكة ، لأتوجّه إلى المكتبة ، حيث أحضرت كتابًا ، وتمدّدت فوق فراشى ، محاولًا أن أشغل تفكيرى من جديد بموضوع الكتاب الذى أقرؤه .

— ولكن هيهات .. لقد استقرت (وفاء) فى عقلى وحرمتنى من التركيز ..

حرمتنى منه تمامًا ..

* * *

٨ ــ إحساس مشترك ..

كانت واقفة مع العمال فى المزرعة ، تشرف على تفريغ أكياس الأسمدة من سيارة النقل التى أحضرتها ، ووقفت على بعد عدة أمتار ، أرقبها وهى تدور وتتحرك ، وتشرف على العمال بهمة ونشاط الرجال .. كنت مأخوذًا بالطريقة التى تتحرك بها ، وخصلات الشعر الذهبية التى تتطاير فوق وجهها .. كانت تتحرك بهمة الرجال ، ولكن خطواتها الرشيقة كانت تكشف عن فتنة طاغية ، وضايقنى هذا الشعور ، الذى يسيطر علىَّ كلما رأيتها ، فهى تشعرنى بضعف حقيقى إزاءها ، مما يجعلنى أتخذ رد فعل معاكسًا لشعورى هذا ، وأحاول الظهور بمظهر أكثر خشونة ..

واقتربت منها ، وقد وضعت على وجهى قناعًا جامدًا ، وما أن رأتنا حتى بدا عليها الاضطراب ، وقد فوجئت بوجودى ، وسرعان ما قالت بصوت ينمّ عن اضطرابها :

ــ حمدًا لله على السلامة يا أستاذ (خالد) .

قلت بصوت تعمدت أن يكون خشنًا ، وأنا أنظر إلى العمال ، وهم يفرغون أكياس الأسمدة البلاستيكية ، دون أن أنظر إليها :

ــ هل أحضرتم كمية الأسمدة المطلوبة ؟

قالت :

ــ نعم .. لقد استخدمنا كل المبلغ المخصص للأسمدة ؛ لإحضارها دفعة واحدة .

تطلّعت إلى آخر كيس يُنقل إلى المخزن ، قائلا :

ــ حسنًا .. أهناك أية متطلبات أخرى ؟

أجابتنى بصوت خافت :

ــ لا .. اعتقد أننى قد حددت كل ما هو مطلوب ، فى الميزانية التى قدمتها لك .

هززت رأسى قائلًا :

ــ حسنًا .. إذا احتجت إلى أى شىء آخر ، اتصلى بى فى المكتب .

واتخذت طريقى إلى سيارتى بخطوات متباطئة ، وأنا أتمنى لو وجدت سببًا للبقاء أكثر من هذا معها ، وشعرت برجفة فى قلبى ، عندما سمعتها تنادينى قائلة :

ـ أستاذ (خالد) ..

التفتَ إليها سريعًا ، وأنا أحاول إخفاء مشاعرى ، قائلا :

ـ أهناك شىء؟

اقتربت منى قائلة ، وهى تخفض وجهها أرضًا :

ـ أرجو أن تقبل أسفى ، بشأن دعوة الغذاء .

قلت ، وأنا أحاول أن أبدى عدم الاكتراث :

ـ لقد نسيت هذا الأمر .

كان وجهها مضرجا بحمرة الخجل ، كما لو كانت فتاة صغيرة تقر بذنبها ، وانتظرت منها أن تقول شيئًا آخر .. أى شىء يجدِّد الحديث بيننا ، ولكنها ظلت لائذة بالصمت ، فعدت أقول :

ـ أليس لديك شىء آخر؟

رفعت إلىَّ وجهها الفاتن ، لتقول :

ـ لا أريدك أن تغضب منى :

رددت عليها قائلا ، وقد عدت لتصنّع عدم الاكتراث :

ـ لماذا؟ قلت لك إننى قد نسيت الأمر .

وظللت واقفا مكانى ، وقد عاد الصمت يخيم علينا ، ولكننى كنت أشعر من نظراتها أن لديها الكثير لتقوله ..وإن

كانت عاجزة عن النطق به ، وأخيرًا لم أجد مناصًا من الانصراف ، فقلت لها :

ـ حسنًا .. والآن وداعًا .

خُيِّل إلىَّ أننى أرى فى عينيها نظرة تتشبث ببقائى ، وتدعونى إلى عدم الرحيل ، وسرعان ما قالت لى بلهفة ، قبل أن أغادرها :

ـ ألن تأتى إلى المزرعة قريبًا؟

قلت لها :

ـ ربّما .. لو أتاحت لى ظروف العمل ذلك .

ثم تركتها وانصرفت إلى سيارتى ، بعد أن ألقيت عليها نظرة أخيرة ، حيث لاتزال واقفة فى مكانها ، وفى عينيها تلك النظرة التى تنادى ببقائى ..

وأخذت طوال الطريق أسترجع هذه النظرة ، متسائلا عما تنطوى عليه من معان .. هل لديها حقًا بعض من ذلك الذى أحسّه نحوها؟ ..

هل تشعر باشتياق لى؟ .. وبرغبة فى وجـــودى إلى جوارها ، كتلك التى أشعرها؟

هل تنتابها تلك اللهفة لرؤياى؟ .. وذلك الشعور بالوحدة

والفراغ لابتعادى عنها ، على ذلك النحو الذى صرت أشعره تجاهها ؟ أم أن خيالى وأحاسيسى المضطربة هى التى صوّرت لى ذلك ؟

ولكن لا ..

لا يمكن أن يكون هذا الذى رأيته فى عينيها خيالًا أو وهمًا صورته لى أحاسيسى ..

لابد أنه حقيقة مؤكّدة ، كتلك الحقيقة التى أعرفها فى نفسى ، وهى إننى لم آت إلى هذه المزرعة للاطمئنان على احتياجاتها ، أو سير العمل فيها ..

لقد كانت هذه حجة اصطنعتها لنفسى ، ووسيلة أرضى بها كبريائى ، لكى تتاح لى الفرصة كى أراها ، على الرغم من نقمتى عليها ، لصدّها إياى ..

من يدرى ربما أن لمسة الحب ، التى أصابت قلبى ، وأخرجتنى عن طورى ، على هذا النحو ، قد مسّت قلبها أيضًا ..

ولكنى هززت رأسى بشدة ، خوفًا من أن أنجرف بأفكارى نحو مشاعر غير حقيقية ، وانطلقت زفرة طويلة من صدرى ، وأنا أقول لنفسى :

— علىّ ألا أسرف فى الخيال ، وأن أتوقف عن الإغراق فى تلك المشاعر المراهقة .

وضغطت على عجلة القيادة بأصابعى فى ضيق ، وأنا أردف قائلًا :

— تبًا لتلك المشاعر .. لماذا تقتحم علىّ حياتى الآن ؟ ولماذا تربطنى بتلك المرأة على هذا النحو المؤرق ؟

استغرقنى العمل فى اليوم التالى ، إلى الحد الذى أبعدنى عن التفكير فيها ، ووجدت (مدكور) داخلًا علىّ ، وهو يحمل معه مجموعة من الأوراق والملفات الجديدة ، قائلًا :

— ألديك استعداد لقضاء بعض ساعات إضافية فى العمل ؛ لإنهاء هذه الأوراق ؟

قلت له مبتسمًا :

— يمكنك أن تحضر لى ما شئت من الأوراق ، فشهيتى مفتوحة اليوم للعمل .

قال ضاحكًا :

— ما كل هذا النشاط ؟ .. سبحان مُغيِّر الأحوال .. من رآك بالأمس لا يراك اليوم .

قلت وأنا أفحص الملفات ، التى تناولتها منه :

ـ دوام الحال من المحال يا صديقى .

استمر فى دعابته ، قائلًا :

ـ ليتنى أراك على هذه الحال دائمًا ، على أن يكون حافزك إلى العمل حقيقيًا ، وليس محاولة للهروب من أشياء أخرى .

نظرت إليه بحنق ، قائلًا :

ـ أية أشياء أخرى تلك التى تقصدها ؟ ألن تتوقف عن لعب دور المخبر السرى ، الذى تمارسه معى .

قال متخابثًا :

ـ ألن تتوقف أنت عن إخفاء أمورك الأخيرة عنى ؟

قلت مؤنبًا :

ـ أية أمور تلك التى تتحدث عنها ؟.. هيا تعال لننتهى معًا من مراجعة تلك الأوراق ، بدلًا من ترديد تلك الكلمات السخيفة .

وفجأة سمعت أزيز آلة الاتصال الداخلى فوق مكتبى ، وصوت سكرتيرتى وهى تقول :

ـ مدام (وفاء) هنا ، وهى تريد مقابلة سيادتك .

بدا علىَّ الاضطراب ، وأنا أزدرد لعابى ، فى حين حدجنى (مدكور) بتلك النظرة الخبيثة وعلى وجهه ابتسامة ذات دلالة واضحة ، قائلًا :

ـ هذا هو ما كنت أقصده بأمورك الأخيرة ، وأعتقد أن استنتاجات المخبر السرى فى محلها .. هيا .. هل ستظل صامتًا هكذا؟ .. ألن تدعوها إلى الدخول ؟ وضغطت على الزر الموضوع أمامى ، قائلًا :

ـ دعيها تتفضّل .

نهضت واقفًا أمام مكتبى ، وأنا أنتظر دخولها من الباب ، وشعرت بأننى غير قادر على الانتظار ، بل أردت أن أتقدّم نحو الباب لأفتحه لها ، ولكننى كنت مرتبكًا ؛ بسبب حضورها غير المتوقّع ، وتلك النظرة الخبيثة التى يحدجنى بها (مدكور) ..

وسُرعان ما فُتِحَ باب الغرفة لأراها وهى تدخل أمامى ..

ما أروعه من ثوب ، ذلك الذى كانت ترتديه ... بل العبارة الأصدق هى : ما أروعه من جمال ! ذلك الذى أضافته إلى الثوب الذى كانت ترتديه ..

لقد كانت بارعة الحسن حقًّا ، ولم يضف جمالها الكثير إلى ثوبها فحسب ، بل وإلى المكان أيضًا ..

لقد أضفت على غرفتى الكثير من مظاهر الجمال والبهجة ، منذ وطئت أقدامها الغرفة ، وقالت بصوتها الناعم الدافىء :

ــ أرجو ألا أكون قد أزعجتكما .

وظللت أحدق فيها ، دون أن أنطق بكلمة .. ما أغرب شعورى نحو هذه المخلوقة ! فكلما رأيتها أحس وكأننى أراها لأوَّل مرة ، وأشعر بالانبهار إزاء جمالها المتجدِّد دائمًا ..

وسارع (مدكور) ، وقد رآنى صامتًا لاستقبالها ، قائلًا :

ــ أبدًا .. أبدًا .. تفضَّلى يا (وفاء) هانم .

تقدَّمت نحوى ، تمد لى يدها مصافحة ، وشعرت بدفء ملمس أصابعها الناعمة فى راحتى ، وأنا أقول لها ، دون أية رسميات :

ــ أهلًا (وفاء) .

وظللت واقفًا أمامها ، دون أن أدعوها إلى الجلوس .. كنت بحاجة إلى بعض الدقائق القليلة ، حتى أستردَّ سيطرتى على نفسى ، وقام (مدكور) مرة أخرى بإنقاذ الموقف ، وهو يقول لها :

ــ تفضَّلى بالجلوس يا (وفاء) هانم .

وسألتنى وهى تنظر إلى الأوراق والملفَّات الموضوعة أمامى :

ــ يبدو أننى قد عطلتكما عن العمل .

اندفع (مدكور) يجمع الأوراق والملفات من فوق مكتبى ، قائلًا لها :

ــ لقد انتهينا من العمل تقريبًا .

ولكزنى فى كتفى بكوعه ، وهو يهمس لى قائلًا :

ــ ما الذى حدث لك ؟ ألم تر هذه السيِّدة من قبل ؟

قلت لها مشيرًا إلى المقعد المواجه لمكتبى :

ــ أرجوك تفضَّلى بالجلوس .

عاد (مدكور) يهمس لى ، وهو يهمّ بمغادرة الغرفة :

ــ لا تقلق بخصوص هذه الأوراق ، سأنهيها بنفسى ، المهم أن تهتم أنت بذلك الجمال الساحر الجالس أمامك ، ولا تظل محدِّقًا بها هكذا كالتمثال .

وما أن شعرت بانصرافه من الغرفة ، حتى بدأت أستعيد توازنى مرة أخرى ، فقلت لها :

ــ هل هناك أية احتياجات أخرى بالنسبة للمزرعة ؟

ردت على قائلة ، وهى تغض الطرف :

ــ ألا يمكننى أن آتى إلى مكتبك ، إلا فى الأمور التى تتعلّق بالمزرعة ؟

قلت لها ، وأنا أحاول ألا أحدِّق فى وجهها الجذَّاب ، حتى

لا أقع تحت تأثيره ، وأعجز عن اتخاذ ذلك المظهر الجاد ، الذى أفضله فى مواجهتها :

ـ لا .. بالطبع يمكنك أن تحضرى فى أى وقت تشائين .

قالت لى :

ـ حسنًا ، ومع ذلك فقد جئتك بشأن المزرعة .

قلت لها ، وقد شعرت بخيبة أمل :

ـ إننى مستعد لتلبية طلباتك .

قالت مترددة :

ـ بعض العمال فى المزرعة يطلبون زيادة فى أجورهم ، وقد طلبوا منى أن أتحدث إليك فى هذا الشأن .

قلت لها بلهجة جافة :

ـ كان يمكنك أن تحدثينى فى ذلك هاتفيًا ، دون أن تكلفى نفسك عناء الحضور إلى هنا .

قالت متخذة نفس المظهر الجاد :

ـ لقد فضلت أن أتحدث إليك مباشرة ، خاصة وقد حضرت لشراء بعض الأشياء الخاصة بى من (القاهرة) .

سألتها قائلا :

ـ وما رأيك أنت ؟

أجابتنى :

ـ رأيى أن تمنحهم زيادة معقولة ؛ فهذا سيزيد من حماسهم للعمل وسيعود بالفائدة على المزرعة ، خاصة وأنهم لم يحصلوا على أية زيادة فى أجورهم ، منذ فترة طويلة .

هززت رأسى موافقًا ، وأنا أقول :

ـ حسنًا .. اقترحى الزيادة المطلوبة ، وسوف أضيفها للميزانية التى اقترحتها ؛ لعمل اعتماد جديد .

قالت لى :

ـ هل يوافقك عشرة جنيهات إضافية لكل عامل ؟

أجبتها مؤيدًا :

ـ فليكن .. إننى موافق .

أخذت تحك بأظافرها حافة مكتبى ، وقد بدا عليها شىء من التردّد والخجل ، وهى تقول :

ـ والآن وقد انتهينا من العمل ، ألا زالت دعوتك ، التى قدمتها لى لتناول الغداء قائمة ؟

وجدت نفسى أقول لها فجأة بعصبية وخشونة :

ـ أتظنيننى طفلًا صغيرًا ، أو شابًا مراهقًا ؟ .. مرة تقبلين دعوتى لك ثم تعودين فترفضينها ، ثم تعودين لتقترحى أن أجدّد

لك الدعوة مرة أخرى .. يجب أن تعرفى أننى لا أحب ولا أقبل هذا الأسلوب فى التعامل معى .

حدجتنى بنظرة تعكس حالة الذهول التى ألمّت بها ، نتيجة لتحدثى معها على هذا النحو الخشن ، وسرعان ما تحوّل الذهول إلى حزن عميق فى عينيها الصافيتين ، وفى سكون نهضت واقفة ، وهى تقول بصوت يعكس ألمها :

ـ آسفه .. أردت فقط أن أعتذر بطريقة عملية ، عن تصرّفى السابق معك .

حدّقت فيها مرتبكًا لحظة ، وقد أحسست أن تصرفى هذا جاء عن غير وعى ، وأننى تصرّفت معها بفظاظة لا تستحقها ، فقلت لها وفى صوتى ماينمّ عن ندمى :

ـ لست أدرى ما الذى دهانى ؟ .. ما كان يجب أن يكون تصرفى معك على هذا النحو ، ولكن ما قلته لك فى المزرعة ، عن عدم اكتراثى بقبولك لدعوتى السابقة لم يكن حقيقيًّا ، لقد كنت غاضبًا حقًّا من تصرفك تجاه هذه الدعوة ، ولم يكن الأمر متعلّقًا بالغذاء بالطبع ، ولكننى أحسست أنك قد صدمت مشاعرى ، التى حاولت أن أعبر لك عنها يومها بصراحة .. والآن هل تغفرين لى إساءتى إليك ، ولاتغادرين غرفتى وأنت ناقمة علىَّ ؟

عادت للجلوس وعيناها مبللتان بالدموع ، لتقول :

ـ كيف أنقم على الرجل الوحيد ، الذى تعاطف مع أحزانى ، وسعى إلى تخفيفها عنى ، ولجأ إلى كل ما يمكن عمله لإسعادى ؟

انطلقت زفرة ضيق من صدرى ، وأنا أقول

ـ ليتك تتوقفين عن الحديث عن امتنانك نحوى .

قالت سريعًا :

ـ ليس الامتنان هو شعورى الوحيد نحوك يا (خالد) .

كانت هذه هى المرة الأولى ، التى أسمعها تنطق فيها اسمى مجرّدًا دون ألقاب ، ولا أدرى لماذا بدا اسمى ذا رنة خاصة فى أذنى هذه المرة ؟.. ولماذا داخلنى إحساس بالسعادة وأنا أسمعها تنطقه هكذا مجرّدًا . وأردفت هى قائلة :

ـ لقد تردّدت فى قبول دعوتك فى المرة السابقة ؛ لأننى أحسست بنفس الإحساس ، الذى انتابك ، حينما التقينا ، والذى حاولت أن تفسره لى دون أن تجد له تفسيرًا .. لقد أصابنى هذا الإحساس بالخوف ، وشعرت أن تأثيره علىَّ ، لو تركت نفسى أستسلم له ، سيكون أقوى من قدراتى ؛ لذا آثرت أن أبتعد عنك ، وأن أخنق هذا الإحساس من البداية .

قلت متسائلا :

ـ لماذا .. هل تخافيننى ؟

أجابتنى قائلة :

ـ لم أتصور نفسى لحظة واحدة ، وأنا أفكّر فى شخص آخر ، غير زوجى الذى فقدته ، ولم أتصوّر نفسى مطلقًا وقد نسيت شعورى باللوعة تجاه ابنتى ، التى ماتت بين يدىَّ ، لأنخرط هكذا سريعًا فى شعور آخر ، مع رجل التقيت به منذ عدة أيام .

قلت لها :

ـ لاتحاولى أن ترمى نفسك بعدم الوفاء والإخلاص ، لشعور إنسانى لاحيلة لك فيه ، فكلانا لم ينس ، ولا يمكنه أن ينسى .. لم أنس زوجتى وابنتى اللتين فقدتهما ، كما أنك لن تنسىْ زوجك وابنتك الراحلة ، كما تعتقدين ، ولكن علينا أن نتوقّف عن تعذيب أنفسنا كلما تذكرناهم ، ولا يجب أن ندع حياتنا تتوقّف أمام عذاب الفراق ، ولوعة حزننا عليهم .. فليبقوا فى وجداننا وفى ذاكرتنا ، ولكن دون أن ندع ذلك يحرمنا من أى إحساس جديد يطرأ على حياتنا ، فنهرب منه ونخشاه . وقالت ونظرة خوف تطلّ من عينيها :

ـ تُرى .. أى طريق يقودنا إليه ذلك الإحساس المبهم ؟

قلت لها مبتسماً ، وأنا أمدّ أصابعى إلى يدها الموضوعة فوق مكتبى ، وأضغط عليها برفق :

ـ دعى القدر يجيب على هذا السؤال ، فليس منا من يختار طريقه .

شعرت بارتجافة أصابعها لدى ملامستى لها ، وسحبت يدها سريعًا من يدى ، فعدت أقول .

ـ بلهجة مرحة :

ـ حسنًا .. لقد سألتينى إذا كانت دعوتى لك للغداء مازالت قائمة وهأنذا أجيبك .. نعم إنها مازالت قائمة ، وأرجو أن تقبليها هذه المرة ، ولاتخيبى أملى كالمرة السابقة .

ابتسمت فى حياء ، وهى تخفض عينيها ..

وكان هذا جوابًا كافيًا .



٩ ـ صراع فى قلبى..

بينما كنت أقود السيارة وجدتها تقول :

ـ هل يمكننا أن نتوقَّف هنا ؟

نظرت إليها باندهاش ، قائلًا :

ـ لماذا ؟ إننا لم نصل بعد إلى المطعم ، الذى سنتناول فيه غداءنا .

ابتسمت قائلة :

ـ ومن قال إننا سنذهب إلى مطاعم ؟

ازدادت دهشتى وأنا أقول :

ـ ألم تقبلى دعوتى للغداء ؟

قالت دون أن تفارقها الابتسامة :

ـ لقد غيرت رأيى .

نظرت إليها ، وقد اكتسى وجهى بالغضب ، قائلًا وأنا أوقف السيارة :

ـ ماذا ؟

ضحكت قائلة :

ـ لا تنفعل سريعًا هكذا .. إننى أقصد أننى أنا الذى أدعوك لتناول الغداء معى ، وفى تلك الحديقة التى تراها أمامنا .

نظرت إليها متحيرًا ، وأنا أقول :

ـ فى تلك الحديقة ؟.. كيف ؟

تناولت سلة صغيرة ، أحضرتها معها من فوق المقعد الخلفى للسيارة ، قائلة :

ـ ألم تلحظ تلك السلة ، التى أحضرتها معى ؟ إن بها فطائر وبيضًا وعسلًا وجبنًا ، أحضرتها معى من المزرعة ؛ لنتقاسمها معًا .

وصمتت لحظة ، ثم قالت :

ـ ألا تحب الطعام الريفى ؟

ابتسمت قائلًا :

ـ ولكنى كنت أريد ...

قاطعتنى قائلة :

ـ لا تحاول أن تبخس من قدر طعامى ، فأنا أؤكد لك أنك ستفضله عن تلك الأطعمة التى يعدونها فى المطاعم .

قلت لها :

ــ أعتقد أنه سيكون رائعًا ، ما دام من صنع يديك .

اعترضت قائلة :

ــ لا تبدأ معى بالمجاملات .. انتظر حتى تتذوقه أوّلًا ، ثم قل رأيك الحقيقى فيما بعد .

أوقفت السيارة ، وهبطنا منها لنفترش العشب الأخضر للحديقة ، وأخذت (وفاء) فى إعداد الطعام الذى أحضرته ، وأعجبتنى الطريقة التى كانت تعدّ بها الطعام فوق النجيلة الخضراء ، والطريقة التى كانت تزيح بها خصلات شعرها ، الذى تهدل فوق جبينها ، وهى تميل برأسها لترتيب الأوعية البلاستيكية التى أحضرتها ، ولا بد أنها شعرت بنظرات الإعجاب المطلّة من عينىّ إذ رمقتنى بنظرة قصيرة وهى تبتسم ، ثم قالت :

ــ والآن تفضّل .

لقد تناولت أفخر الأطعمة ، فى أفخر الأماكن ، ولكننى أعتقد أن هذه هى أجمل الأطعمة التى تناولتها طوال حياتى ..

لم يكن هذا بسبب جودة الطعام الذى أعدّته بالطبع ، ولكن لما أحدثه هذا من تقارب كبير بيننا .

وسألتنى قائلة :

هيا .. دون مجاملة ، قل رأيك الحقيقى .

قلت وأنا أمسح شفتىّ من أثر الطعام بمنديل ورقى :

ــ دون مجاملة .. هذا أشهى طعام تناولته فى حياتى .

بدت على وجهها ملامح الرضا ، وهى تقول :

ــ يسعدنى أن يكون هذا رأيك .

ابتسمت قائلًا :

ــ ولكنى لم أتصورك تجيدين صنع الأطعمة الريفية .

قالت باستنكار :

ــ لماذا ؟.. إننى ريفية الأصل .. فلا تغتر كثيرًا بمظهرى .

قلت هامسًا :

ــ سواء كنت من الريف أو المدينة ، فأنت أجمل من وقعت عليها عيناى .

قالت بدلال ، وهى تحاول إخفاء ابتسامتها :

ــ آه .. لقد بدأت الغزل .

قلت لها :

ــ إذا كنت تعتبرين صراحتى غزلًا . فهى كذلك .

سألتنى قائلة :

ــ قل لى : كيف تقضى يومك ؟.. أعنى بعد انتهائك من عملك .

قلت ، وأنا أستند بظهرى إلى جذع الشجرة التى تظللنا :

— لاشىء يذكر .. أعود إلى المنزل لمشاهدة (التليفزيون) ، أو قراءة كتاب ، وأحيانًا أذهب إلى النادى لممارسة بعض الرياضة ، أو أرتاد بعض الحفلات التى يقيمها رجال الأعمال .

قالت وهى تعيد وضع الأوعية داخل السلة :

— إنها حياة حافلة إذن .

قلت وأنا أنظر إلى طفلين صغيرين ، يمرحان على مسافة منا :

— بل قولى : إنها حياة رتيبة مملة ، أحاول أن أشغلها بأية وسيلة كانت .

والتفت إليها ، فوجدتها تحدق فىّ قائلة :

— الحياة قاسية ، حينما نجد أنفسنا فيها دون من نحبهم .. أليس كذلك ؟ إنه شعور أعرفه جيدًا .

أجبتها ، وأنا أتناول يدها فى راحتى :

— ولكننى لم أعد أعرفه ، منذ أن قابلتك .

سحبت يدها من يدى سريعًا ، وهى تسبل أهدابها ، وقد بدا عليها الاضطراب ، ولكنها عادت تنظر إلىّ مرة أخرى ، وهى تقول :

— لم أكن أريد أن يحدث بيننا مثل هذا التقارب .

رددت عليها قائلًا :

— ولكنه حدث ، بدليل أنك قد جئت إلى مكتبى ومعك سلة الطعام هذه ، إذن فقد فكرت أن نلتقى ، وأن نتقارب ، وأن نتناول طعامنا معًا .

نظرت إلىّ قائلة :

— أليس هذا نوعًا من الجنون ؟.. لقد حاولت أن أعتذر لك بطريقة لطيفة عن تصرفى معك ، فأعددت هذه السلة ، وجئت بها لمقابلتك ، وعندما قابلتك فكرت أن أتراجع عما فكرت فيه ، ولكننى فى اللحظة الأخيرة وجدتنى أدعوك معى إلى الغداء فى ذلك المكان .

قلت لها :

— لا تقولى إنك قد فعلت هذا كنوع من الاعتذار المهذب فحسب .

ردت قائلة ، وقد عادت تسبل أهدابها :

— اعتقد أننى أجبت على ذلك ، حينما تحدثت إليك فى مكتبك .

قلت وأنا أعود لتناول يدها فى يدى :

ــ ولقد اتفقنا على أن نطرح الخوف جانبًا .. أأنت نادمة لوجودنا فى هذا المكان وتناولنا للطعام معًا ؟ أم آسفة على إحساسك ، الذى تشعرينه نحوى ؟

صمتت قليلًا ، قبل أن تقول ، وقد أسلمت يدها ليدى :

ــ لا أعرف .

وقلت لها ، وأنا أتطلّع إلى عينيها الجميلتين :

ــ ليتك تثقين بى يا (وفاء) .

ونظرت إلىَّ ، وفى عينيها نظرة تشفّ عن حيرتها :

ــ ربما لا أثق فى نفسى .

ثم أدارت وجهها إلى الجهة المقابلة ، فأدرته إلىَّ بلطف ، قائلًا :

ــ لا تعاملى نفسك بمثل هذه القسوة .. دعيها تنطلق من ذلك الأسر الذى تصرين على سجنها فيه .

ابتسمت قائلة بمرارة :

ــ إنك تحاول تبسيط الأشياء .

رددت قائلًا :

ــ ولماذا أُعقّدها ؟

حدّقت فىَّ وهى تعود لتسحب يدها من يدى ، قائلة :

ــ أحيانًا أعتقد أنك لم تعرف شيئًا من الحزن والمرارة كما حدثتنى ، حينما علمت بغرق ابنتك وزوجتك ، وأن الأمر لم يكلفك سوى أيام قليلة من الحزن ، وأما ماعدا ذلك فلم يكن سوى كذب وتمثيل .

قلت متألمًا :

ــ أدعو الله ألا يعرف أحد حزنًا ولا ألمًا كاللذين عرفتهما .

بدا على وجهها شعور بالأسف الشديد ، وهى تنظر إلى عينىَّ اللتين اغرورقتا بالدموع ، فأحاطت وجهى بكفيها قائلة :

ــ أنا آسفة .. آسفة جدًا .. ليتنى ما قلت لك هذا .

قلت لها :

ــ أنا أعرف لماذا قلته ، ولكن صدقينى ، لو أن الحزن والألم يعيد إلينا مَن فقدناهم من أحبَّاء ، لما توقّفنا عن الحزن .

استمرت تنظر إلىَّ ، وهى تحيط وجهى بكفيها ، وفى عينيها نظرة تأثر ، ثم قالت فجأة :

ــ (خالد) . أخشى أننى أحبك .

كنت أرقبها فى صمت ، والتقت عينانا فى نظرة ، كشفت كل مشاعرنا ، وأنا أقول لها :

— أما أنا ، فأعرف جيدًا أننى أحبك ، برغم مراوغتى لنفسى حتى لا أعترف لها بذلك ، أما الآن فلم أعد أخشى الاعتراف بهذا الحب .

عادت تشيح بوجهها عنى ، وهى تقول :

— ولكننى أشعر بالذنب من أجل ذلك .

أمسكت بكتفها قائلًا :

— لماذا؟

تحوّلت إلىّ بعينين دامعتين ، وهى تقول :

— لأننى عاهدت نفسى على أن أبقى مخلصة لزوجى وذكرى ابنتى .

قلت وأنا أضغط كتفيها فى رفق :

— لكن زوجك وابنتك ماتا ، كما ماتت زوجتى وابنتى . أما نحن فما زلنا أحياء ، ومشاعرنا أيضًا حية .

ردّت قائلة ، وفى عينيها نظرة رافضة :

— ولكننى أحس بزوجى كما لو كان حيًا ، وأشعر بأننى أراه واقفًا أمامى ، وهو يشير إلىّ بأصبعه يتهمنى بالخيانة ، والذنب .. إننى أرى عينيه تحدقان فىّ بأسى ، وهو يقول : « كيف أمكنك أن تفعلى هذا؟ .. كيف تخليت عن وفائك

وإخلاصك بمثل هذه السهولة؟ » .. كما أرى ابنتى أمامى تبكى ، وترمقنى بنظرة لوم واتهام ، وهى تقول لى : « كيف أمكنك أن تنسينى على هذا النحو يا أمى ؟.. لماذا تركت ذلك الرجل ينتزعنى من تفكيرك؟ » .

قلت لها بانفعال :

— (وفاء) .. توقّفى عن هذا الكلام .. أنا أيضًا كان لى زوجة وابنه ، كنت أتمنى أن أضحى بحياتى من أجلهما ، ولكنهما رحلتا عنى ، وحزنت كثيرًا من أجلهما ، ولكنى لا اعتقد أنهما يرميانى بالذنب ، أو يحاصرانى بنظرات الاتهام ، على النحو الذى تريدين أن تعذبى به نفسك ، ولو كنت أتخيلهما الآن أمامى كما تفعلين ، لوجدتهما يطالبانى أن أعيش حياتى ، كما يفعل بقية البشر .. أحب ، وأسعد بمن أحبه ، دون أن أثقل على نفسى بشعور ذنب لامبرّر له .

قالت دون أن تتخلى عن نظرتها المضطربة :

— ربما أن مشاعر المرأة تختلف عن مشاعر الرجل .

قلت متسائلًا :

— أتريدين أن تقولى إن المرأة أشد إخلاصًا ووفاء من الرجل؟

قالت :

ــ يتعيَّن على المرأة أن تتمسك بإخلاصها .. يتعين عليها أن تكون هكذا .

رددت عليها قائلًا :

ــ لو كان كلامك هذا صحيحًا .. لما عرفت المطلقات والأرامل الحب والزواج بعد رحيل أزواجهن أو أبنائهن .. (وَفاء) ، لقد عبرّنا منذ لحظات عن إحساس حقيقى وصادق ، دعينا نتمسك به .. دعينا ندع له الفرصة لكى ينمو ويكبر ، ويعبرّ عن نفسه بشكل أكثر صدقًا ، وهو أن كلًا منا يشعر بالحب تجاه الآخر .

قالت ، وهى تتراجع برأسها إلى الوراء :

ــ ربما الأمر لا يعدو كونه مجرد نزوة .

ردَدت كلمتها قائلًا :

ــ نزوة ؟ أتتحدثين عن مشاعرنا الصادقة ، التى كشفنا عنها الآن ، على أنها مجرّد نزوة .. كيف أمكنك أن تقولى ذلك ؟

هزت رأسها بحزن قائلة :

ــ لست أدرى .. لست أدرى .. إننى حقيقة مضطربة .. أرجوك يا (خالد) .. دعنى أذهب الآن .

ونهضت واقفة ، وأنا أتطلّع إليها فى حيرة ، ثم نهضت بدورى ، قائلًا :

ــ حسنًا .. سأوصلك .

ولكنها تناولت السلة ، وابتعدت سريعًا وهى تقول :

ــ بل سآخذ سيارة أجرة .

وحاولت اللحاق بها ، قائلًا :

ــ وما الذى يدعوك إلى أخذ سيارة أجرة .. سأوصلك بسيارتى ؟

ولكنها أصرت على موقفها فى عناد ، وهى تقول :

ــ أرجوك يا (خالد) .. دعنى أذهب بمفردى .. أرجوك أريد أن أنفرد بنفسى الآن .

ولم أحاول أن أضغط عليها ، فأوقفت لها سيارة أجرة ، ووقفت أرقبها وهى ترحل .

كان من الواضح أنه هناك صراع قائم بين قلبها .. وإحساسها العميق بالذنب ، أما أنا فقد حسم قلبى الأمر .. إننى أحبها ، ومنذ هذه اللحظة لن أتوقّف عن حبى لها ، مهما كان من أمر الماضى أو الحاضر .. أو المستقبل ..

* * *

١٠ ــ عذاب الحب ..

أوقفت سيارتى بالقرب من سور حديقة منزلها ، ثم اجتزت الباب الخشبى ، ووجدتها واقفة فى الفناء الخلفى لسور الحديقة ، وهى تنشر بعض ثيابها على الحبال الممتدة فى الفناء ، فناديتها وأنا ألوّح لها :

ــ (وفاء) .

وما أن رأتنى حتى انتابتها حالة من الاضطراب ؛ لظهورى المفاجئ . وطار (الإيشارب) الحريرى الذى كانت تنشره ، ليستقرّ فوق مجموعة الشجيرات الصغيرة الموجودة داخل الحديقة . وأشرت لها مطمئنًا ، وأنا أتجه نحو الشجيرات التى تعلّق بها (الإيشارب) ، ولكن قدمى تعثّرت فجأة ببعض أصص الزهور القريبة من الشجيرات ، فوجدت نفسى أنزلق لأسقط فوق الحشائش المبلّلة ، وأصص الزهور المحطمة . ووجدتها تتقدم نحوى وأنا على هذا الوضع ، وهى تضع يدها على فمها ، تكتم ضحكتها ، ونظرت إلى نفسى ، فوجدت

ملابسى قد تلوّثت ببقع طينية فى أماكن مختلفة ، وشعرت لحظة بالغضب والحرج ، ولكننى لم ألبث أن انفجرت ضاحكًا بدورى ، وأنا أنظر إليها .

ومدت يدها تساعدنى على النهوض ، ولكن قدمها انزلقت بدورها فى البقعة الطينية ، التى تخلفت عن سقوطى ، لتهوى بدورها على الأرض ، ولوث الطين ملابسها ، وعاد كلانا ينظر إلى الآخر ، دون أن يقدر على منع ضحكاته ، فقد بدا كلانا فى وضع لا يُحسد عليه ..

وسألتنى بعد أن ارتديت جلبابًا خاصًا بأحد العاملين فى المزرعة ، فى حين أبدلت هى ثيابها ، وارتدت ثيابًا أخرى جافة ونظيفة :

ــ ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

همست لها وأنا أرتشف رشفة من كوب الشاى الساخن ، الذى قدمته لى :

ــ اشتقت لرؤياك. ولم أستطع الانتظار أكثر من ذلك .

قالت وفى عينيها نظرة عتاب :

ــ (خالد) .

ولكننى قاطعتها قائلًا :

— (وفاء) .. توقفي عن معاندة قلبك .. إنك تحبينني ، وأنا أعرف ذلك ، تمامًا كما أعرف أنني أحبك ، ولن أستطيع الابتعاد عنك .

عادت تردد اسمي ، كما لو كانت تتوسل إليَّ لكي أكف عن إثارة مشاعرها :

— (خالد) .

قلت بعناد :

— لا .. لن أدعك تكبلين مشاعري هذه المرة ، كما لن أسمح لك بالهروب كما فعلت من قبل .. ثم ألا تشعرين بشيء من الشفقة نحوي .. على الأقل لما لاقيته من أجلك اليوم .

انطلقت منها ضحكة قصيرة ، حينما تذكرت ما حدث لنا في الحديقة منذ قليل ، ثم قالت :

— لا تنس أنني لقيت نفس المصير .

قلت مازحًا :

— حسنًا .. لو أن ما حدث سيأتي لي في النهاية بهذه الضحكات ، وتلك الإشراقة الرائعة التي أراها على وجهك ، فإنني مستعد أن أعود للتزحلق في هذه البقعة الطينية من جديد .

قالت بخبث :

— يا لك من كاذب ! ونهضت واقفًا ، وأنا أتجه نحو الباب قائلًا :

— حسنًا .. هل تريدين أن أثبت لك صدقي ؟

ولكنها سارعت بالنهوض لتلحق بي ، وهي تتعلق بذراعي قائلة :

— توقف .. أيها المجنون .

كانت المسافة بيننا قصيرة في هذا الوضع ، بالقرب من باب المنزل ، وتقابلت عيوننا في نظرة جاشت بكل مشاعرنا ، وأحسست بخفقات قلبي تكاد تكون مسموعة ، وأنا أضع يدي على وجنتها ، التي بدت دافئة وناعمة ، وقد تدفقت إليها الدماء ، فاكتست بحمرة زادتها جمالًا وفتنة .

وهمست لي ، وكأنها ترجوني أن أرحم ضعفها :

— (خالد) .

همست لها بدوري :

— (وفاء) .. إنني أحبك حبًّا لم أعرفه في حياتي من قبل .

وقطع علينا هذا الإحساس ، الذي احتوانا ، وحولنا إلى كيان واحد ، حضور الخادمة المفاجئ ، وهي تقول :

— هل أحضر مزيدًا من الشاي ؟

انتفضت (وفاء) ، كما لو كانت قد أفاقت من غفوة قصيرة ، فابتعدت عنى ، متجهة نحو المقعد الذى كانت تجلس عليه منذ لحظات ، دون أن تنطق بكلمة ، وجدتنى أجمع شتات أنفاسى اللاهثة ، وأنا أقول للخادمة :

ــ شكرًا يا (أم إبراهيم) .. لا حاجة بنا لمزيد من الشاى .

تركتنا الخادمة ، وهى ترمقنا بنظرة ذات مغزى ، فى حين عدت أنا لأجلس بجوار (وفاء) ، قائلًا :

ــ ماذا بك ؟

قالت وهى تطرق أرضًا ، دون أن ترفع وجهها إلىَّ :

ــ (خالد) .. مجيئك هنا ، وتكرار لقائنا على هذا النحو ، سوف يثير الأقاويل .

قلت لها مطمئنًا :

ــ لا تخشى شيئًا ، فنحن لم نرتكب أية أخطاء .

تحولت إلىَّ بوجهها ، قائلة فى شىء من الانفعال :

ــ من السهل عليك أن تقول هذا ؛ لأنك رجل ، ولكنك لا تعرف ما الذى يمكن أن يقال فى مكان ريفى كهذا ، عن أرملة تستقبل فى منزلها شخصًا يلاحقها من آن لآخر ؟

وقلت لها بلهجة جادة :

ــ إنهم يعرفون أننى آتى إلى هنا باعتبارى شريكًا لك فى المزرعة .

ردت قائلة :

ــ هذا التبرير لن يكون مقبولًا لحضورك إلى هنا .. ألم تر نظرة (أم إبراهيم) إلينا ؟. إن هذه السيدة تعمل لدينا من رحيل زوجى ، وكانت تصفنى دائمًا بالسيدة الفاضلة ، ما الذى يمكن أن تقوله عنى الآن ، بعد أن رأتنى معك فى هذا الوضع ؟

قلت لها بصوت غاضب :

ــ إنها لم ترنا فى وضع مشين .. لقد رأتنا فى أسمى لحظة يعيشها اثنان .. تلك اللحظة التى يبوح فيها كلاهما للآخر بحبه ومكنون مشاعره .. اللحظة التى يتوحد فيها اثنان فى كيان واحد . ليتك تتوقفين عن إفساد تلك الأحاسيس الرائعة ، التى أحسها لأول مرة فى حياتى ، فلن يقلل حبنا أبدا قيمتك كسيدة فاضلة .

قالت بصوت واهن :

ــ وكيف يمكنك أن تفسر لهم تلك الأحاسيس والمشاعر ، التى تتحدث عنها ؟

قلت بنبرة جادة :

ــ يمكننى هذا بالطبع .

ــ كيف؟

ــ نتزوَّج .

نظرت إلىَّ غير مصدِّقة ، وهى تردِّد كلمتى قائلة :

ــ نتزوج؟!

واقتربت منها لأقبض على مرفقيها ، وأنا أقول :

ــ نعم يا (وفاء) .. مادمنا نحب بعضنا ، فما المانع فى أن نتزوج؟

قالت وقد فاجأها مطلبى :

ــ بهذه السرعة؟!

قلت لها :

ــ ولماذا نتباطأ؟

سحبت مرفقيها من يدى ووقفت قائلة :

ــ أنت دائمًا تتعجل الأمور .

قلت لها ، وقد تملكنى شعور بالضيق :

ــ لقد حيرتنى معك .. ماذا أفعل لأرضيك؟ ماذا أفعل لأهدئ من مخاوفك؟ ماذا أفعل لأثبت لك حبى أكثر من هذا؟

قالت بعيون متوسِّلة :

ــ (خالد) .. إننا لم نختبر عواطفنا جيدًا .

قلت بسخرية :

ــ كل هذا ولم نختبر عواطفنا جيدًا !. أيحتاج الأمر معك إلى مزيد من الاختبارات؟

اغرورقت عيناها بالدموع وهى تقول :

ــ أرجوك .. امنحنى الفرصة ، ولاتقسُ علىَّ .

أمسكت مرفقيها هذه المرة فى قسوة ، وأنا أقول :

ــ لن أبقى طويلًا تحت رحمة تردّدك .. هناك سؤالان أريد منك أن تجيبينى عنهما .. هل تحبيننى أم لا ؟ وهل تقبلين الزواج منى أم لا ؟

انخرْطت فى البكاء ، دون أن تجيب ، فأبعدت يدى عنها ، وأنا أقول :

ــ حسنًا .. لن أحضر إلى هذه المزرعة مرة أخرى ، وسيكون (مدكور) وكيل أعمالى وسيطًا بينى وبينك ، فى إدارة شئون المزرعة .

وتركتها متجهًا نحو الباب ، ولكنها اندفعت نحوى ، وهى تتعلق بذراعى قائلة :

ــ أرجوك يا (خالد) .. لاتتركنى ، فأنا لم أعد أقوى على فراقك .

استدرت إليها قائلًا :

ـ (وفاء) إنك تعذبيننى معك ، ولا أدرى سببًا لهذا العذاب .

قالت وعيناها تنطقان بالصدق :

ـ وأنا أتعذّب أكثر منك ، فأنا لم أحب أحدًا على هذا النحو الذى أحسّه نحوك .

قلت لها ، وأنا أتناول رأسها بين يدىّ ، لأضعها على صدرى :

ـ إذن فما هى المشكلة يا حبيبتى ؟.. ألم نتفق فى لقائنا الأخير ، على التخلص من آلام الماضى ؟

قالت ، وهى تسند رأسها على صدرى كطفلة صغيرة :

ـ لم يعد الماضى هو ما أخشاه .. بل المستقبل .

نظرت إليها فى حنان ، قائلًا :

ـ أتخافين من مستقبلك معى ؟

أجابتنى قائلة :

ـ بل أخاف أن أفقدك .. لقد قاسيت كثيرًا بسبب فقدانى لمن أحبهم ، وأخشى أن يتكرر هذا معك .

ابتسمت قائلًا ، وأنا أعود فأحتوى وجهها بين يدىّ :

ـ يا لك من طفلة ساذجة !! لماذا تعذبين نفسك بأشياء هى فى علم الغيب ؟

اجابتنى قائلة :

ـ لم أعد أقوى على تحمّل المزيد من الألم فى حياتى .

رددت عليها قائلًا :

ـ قد تحمل لنا السنون القادمة كل أسباب السعادة .. هل أعود فأكرِّر عليك أننى مررت بنفس محنتك ، وفقدت من أحبهم ، فى بلد بعيد ، دون أن أراهم ؟ ومع ذلك فقد عرفت الحب معك ، وأرى أمامى مستقبلًا سعيدًا إلى جوارك ، دون خوف ولا تردد .

عادت تلقى رأسها على صدرى ، وهى تقول :

ـ إنك تمنحنى الأمان دائمًا منذ رأيتك .

قلت ، وأنا أمسح بيدى على شعرها :

ـ أما أنت ، فقد منحتنى الحب الذى تمنيته دائمًا .

وابتسمت لها قائلًا :

ـ والآن قولى : إنك موافقة على الزواج بى .

ابتسمت بدورها قائلة :

ـ ألا يسبق الزواج خطبة ؟

قلت مبتهجًا :

ــ لسنا بحاجة إلى خطبة ، فالخطبة جُعِلَتْ من أجل التعارف قبل الزواج ، ونحن نشعر بأننا نعرف بعضنا البعض منذ أمد بعيد ، كما أن مشاعرنا قد أصبحت واضحة .. أليس كذلك ؟

ضحكت قائلة :

ــ مازلت عجولًا .. ولكننى مصرّة على الخطبة .

قلت وأنا أخشى أن تتراجع :

ــ حسنًا .. حسنًا .. فلنجعلها أسبوعًا واحدًا .. إننا لن نكون بحاجة لأكثر من ذلك ، وكل ما تحتاجينه من مستلزمات الزواج سيكون جاهزًا وطوع أمرك . عادت تضحك قائلة :

ــ فلنجعلها أسبوعين مادمت متعجِّلًا على هذا النحو .

وكانت أجمل عبارة سمعتها فى عمرى كله .

* * *



١١ ــ المفاجأة ..

اتصلت بها هاتفيًا ، قائلًا :

ــ أعدّى أفضل ما لديك من ثياب ، سوف نعلن خطبتنا الليلة .

قالت مؤنبة :

ــ (خالد) .. لقد اتفقنا على إعلان الخطبة بعد خمسة أيام ، عندما ينتهون من جمع ثمار الفراولة .

قلت متخابثًا :

ــ وهل من الضرورى التمسّك بهذا الاتفاق ؟

أجابتنى بمرح :

ــ أننى لا أحب الرجل الذى يستهين باتفاقاته وعهوده ، ولا أعتقد أنك تنتمى لذلك النوع من الرجال .

قلت سريعًا :

ــ حسنًا .. ولكنى مصرّ على أن ترتدى أفضل ما لديك من ثياب الليلة ؛ كى أحضر إليك وأصحبك لسهرة رائعة .

قالت لى :

ـ وهل ترى أنه من اللائق أن نسهر معا ، قبل أن نعلن خطبتنا بصورة رسمية ؟

قلت محتجًا :

ـ لقد أثرت حيرتى .. إننى لا أرى سوى أنك تحاولين التخلص منى على أى نحو كان .

جاء ردها سريعًا :

ـ إياك أن تقول ذلك .. إنك لاتعرف مدى لهفتى واشتياقى لرؤياك ، فالأيام التى لا أراك أو أسمع صوتك فيها ، ليست سوى ساعات انتظار طويلة قاسية حتى أعود فأراك من جديد .

قلت ، وقد أسعدتنى كلماتها :

ـ لولا شروطك القاسية لاختصرنا أيام البعاد هذه .

بدا فى صوتها الصدق واضحًا ، وهى تقول :

ـ ليتك تعرف كم أنا متلهفة لاختصار هذه الايام ، التى تباعد بيننا أكثر منك ، ولكن شيئًا ما يحثنى على التأنى ، ويلح علىَّ ألا أندفع وراء لهفتى هذه .

قلت لها :

ـ الخوف من المستقبل مرة أخرى .

بدلت نبرات صوتها إلى تلك النبرة المرحة ، التى كانت تحدثنى بها فى بداية اتصالنا ، حتى لايستغرقنا ذلك الحديث ، قائلة :

ـ ماذا لوجئت الآن إلى المزرعة ؟ دعك من تلك السهرة التى تتحدث عنها .. سأعد لك طعامًا ريفيًا كالذى أعجبك فى المرة السابقة ولكن هذه المرة سيكون أكثر ترفًا . دجاج .. أو حمام .. وأشياء من هذا القبيل .

قلت لها سريعًا :

ـ حسنًا .. سأحضر إليك فورًا .

ولكنها استوقفتنى قائلة ، قبل أن أضع السماعة :

ـ انتظر .. يجب أن تنهى عملك أولًا .. فما زال الوقت مبكرًا .

قلت لها :

ـ حسنًا .. سأحضر فى الثالثة تماما .

ولكنها عادت تتراجع قائلة :

ـ بل ليتك تأتى الآن ؛ فأنا بحاجة ماسة لقضاء ساعات

أطول معك هذا اليوم ، ولا أدرى لماذا أشعر هذا اليوم بالذات أننى مشتاقة إليك أكثر من أى وقت مضى .

رددت عليها قائلًا :

ـــ ياحبيبتى .. سأدع العالم كله من أجلك ، وأحضر إليك فى الحال .

همست بحنان وعاطفة لم أعهدهما فيها من قبل :

ـــ (خالد) .. إننى أحبك كثيرًا .. تأكد أننى أحبك أكثر مما تتصوّر .

ووضعت سماعة الهاتف وقد تملكنى شعور غريب .. شعور بنشوة العاطفة ، والخوف من المجهول .. ولا أدرى لماذا تملكنى هذا الشعور الغريب الغامض .

وفى تلك اللحظة فُتح باب الغرفة ، ودخل (مدكور) وهو يقول :

ـــ هل أنت مستعد؟

قلت مستفسرًا :

ـــ مستعد لماذا؟

نظر إلىّ بدهشة ، قائلًا :

ـــ (خالد) .. ما الذى حدث لك؟ إننا سنذهب لمقابلة

المستورد الإنجليزى ، الذى سنتعاقد معه على الصفقة الجديدة ، فى فندق (سميراميس) ، بعد ساعة من الآن؟

قلت دون اكتراث :

ـــ تول هذه المهمة بالنيابة عنى .

قال بانفعال :

ـــ ما هذا الهراء؟.. أنت تعرف أن وجودك ضرورى لإتمام هذه المقابلة .. الرجل يترك بلده ، ويأتى إلى هنا خصيصًا لإتمام التعاقد معك ، وأنت تقول هكذا بكل بساطة «تول هذه المهمة نيابة عنى» ؟!

قلت ، وأنا أضع أوراقى فى درج المكتب :

ـــ هيا يا (مدكور) .. لاتبالغ فى الأمور كعادتك .. أنت تعرف أن هذا الرجل لم يأت بمفرده ، وإنما جاء ضمن مجموعة من المستوردين ورجال الأعمال الإنجليز ، وأنه لم يأت للتعاقد معى وحدى ، وإنما مع مجموعة من المصدرين المصريين ، وبالتالى فلن يكون غيابى ملحوظًا ، وسط هذا الحشد .

ثم نظرت إليه قائلًا ، وأنا أستعد للوقوف :

ـــ ثم أننى أعرف أنك كفء تمامًا ، لإنهاء هذا الأمر بالصورة المرجوة .

حدجنى بنظرة فاحصة وهو يقول :

ـــ وأنت .. إلى أين ستذهب ؟

قلت ، بعد أن غادرت مقعدى :

ـــ لا شأن لك بهذا .

قال ، وهو لايزال يحدجنى بنظراته الفاحصة :

ـــ إليها .. أليس كذلك ؟

قلت ، وأنا أرمقه بدورى بنظرة مدققة :

ـــ من هى هذه التى تتحدث عنها ؟

ابتسم فى خبث قائلا :

ـــ المرأة التى خلبت لبك ، واستحوذت على قلبك ، إلى الحد الذى أغفلت معه عملك على هذا النحو .. (وفاء) هانم :

ـــ اقتربت منه قائلا فى حدة :

ـــ (مذكور) .. إننى لا أسمح لك أن تتحدث عنها بهذا الأسلوب الساخر .

قال معتذرا :

ـــ أنا آسف .. ولكننى لم أعهدك ، طوال سنوات صداقتى وعملى معك . منجرفا وراء عواطفك على هذا

النحو .. لقد كانت أعمالك تأتى دائما فى المقام الأول ، وقبل أى شىء آخر ، حتى فى تلك الفترة التى تعرضت فيها لمحنة فقدك لزوجتك وابنتك ، لم يستغرق الأمر منك وقتا طويلا ، ثم عدت تمارس أعمالك ، وتدير هذه الشركة بإخلاص ونشاط حسدك عليه الجميع .

قلت له :

ـــ أنت تعرف جيدا أننى كنت أحاول أن أهرب بالعمل من أحزانى .. كان الأمر بالنسبة لى انتحارا .. ولكن على طريقتى المفضلة .

قال لى :

ـــ أعرف ذلك ، وكنت أتدخل بنفسى لإنقاذك من كم العمل الضخم ، الذى حاولت أن ترهق نفسك به هذه الفترة ، إلى حد الانتحار ، وحدث بيننا مشاحنات كثيرة بهذا الأمر ، لكن الأمور عادية بالنسبة لك ـــ طبيعية فيما بعد ، وكما تدخلت باسم الصداقة ، وبصفتى نائبا لك فى هذه الشركة ، لكى أحول بينك وبين هذا الانتحار باسم العمل ، فإننى أسمح لنفسى أن أتدخل مرة أخرى ، وبنفس الصفة ، لكى أحول بينك وبين هذا الإهمال لعملك ، من أجل نزوة عاطفية .

ابتسمت له قائلًا :

ـ أولًا أنت تعرف أننى لست مهملًا فى عملى على الإطلاق ، وإن كنت أعهد إليك ببعض الأعمال الهامة ، فذلك لثقتى المطلقة بك ، وبقدراتك ، ثم إن من حقى أن أحصل على بعض الراحة ، وأن أمنح مشاعرى حقها فى الحياة ..

ـ ثانيًا : إننى لا أعيش نزوة عاطفية مع (وفاء) كما تدعى ، بل أعيش أهم حدث فى حياتى كلها ، ولكى أثبت لك ذلك .. خذ .

وضعت يدى فى جيبى ، مخرجًا ورقة نقدية من فئة العشرة جنيهات ، أضعها فى يده ، فنظر إليها باندهاش ، قائلًا :

ـ ما هذه؟

ضحكت قائلًا :

ـ قيمة الرهان .. ألم تراهننى من قبل على أننى سأقع فى حب هذا المرأة .. حسنًا .. إننى أعترف بأننى قد خسرت الرهان .

نظر إلى الورقة فى يده ، وإلى وجهى متحيرًا ، ثم قال :

ـ هل يعنى هذا أنك ..

قاطعته قائلًا :

ـ نعم يا (خالد) .. إننى أحبها .. أحبها أكثر مما تتخيل ، ومما تخيلته أنا نفسى .. لقد ربط الحب بين قلبينا برباط وثيق ، وسوف يكون بيننا فى المستقبل القريب وثاق أكبر .. سنتزوج .

ونظر إلىّ بدهشة قائلًا :

ـ برغم أن المقدمات كانت أمامى واضحة ، وبرغم رهانى معك ، إلا أننى لم أعتقد أن الأمور ستطوّر بينكما على هذا النحو .

قلت له :

ـ إننى أشعر يا (مدكور) أن الله قد أرسل إلىّ هذه المرأة ، فى ذلك الوقت ، تمسح عنى أحزانى ، وتكون خير عوض لى ، عن تلك المحنة التى مررت بها .

ربّت (مدكور) على كتفى قائلًا :

ـ إننى أتمنى لك كل سعادة ياصديقى .

وفى تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف فوق مكتبى بشكل متواصل . فقال (مدكور) :

ـ يبدو أنها محادثة خارجية .

قلت له .

ـ رد أنت .. وإن لم يكن الأمر هامًا ، تول تصريف الأمور ، فلدى موعد معها الآن .

تناول (مدكور) سمَّاعة الهاتف ؛ ليردّ على المتحدث ، ووجدته يتحدث بالإيطالية ، ثم سلمنى السمَّاعة ، قائلاً وقد اكتسى وجهه بتعبير غريب :

ـ المكالمة من (إيطاليا) .

قلت له بدهشة :

ـ (ايطاليا)؟!. هل لنا عملاء هناك؟

ولكنه قال لى بصوت خافت ، لايكاد يُسمع :

ـ المتحدث يقول : إنها زوجتك .

نظرت إليه بذهول ، وأنا مازلت أمسك سماعة الهاتف ، وبعد لحظة من الصمت ، قلت مرددًا دون أن يفارقنى ذهولى :

ـ زوجتى .. لابد أنها مزحة من أحد الأشخاص ، ولكنه مزاح سخيف .

ووضعت السماعة على أذنى ليزداد ذهولى ، فقد كان صوتها ..

صوت (سلوى) زوجتى ، وهى تحدثنى قائلة :

ـ (خالد) .. أنا (سلوى) .. إننى أتحدث إليك من (روما) .. (خالد) هل تسمعنى؟

قلت دون وعى :

ـ ولكن زوجتى وابنتى .. أقصد .. لقد غرقتا ...

ردت قائلة :

ـ لا ياحبيبى إننا لم نغرق أنا وابنتنا بخير ، وسوف نحضر إلى (القاهرة) .. صباح الغد .

قلت وأنا ما زلت تحت تأثير الصدمة :

ـ ولكن .. كيف؟

أجابتنى قائلة :

ـ إنها قصة طويلة ، لن يمكننى شرحها لك الآن ، فوقت المكالمة لا يسمح .. أعرف أن الأمر جاء مفاجئًا لك ، ولكن اطمئن نحن بخير ، وسوف أشرح لك كل شىء فيما بعد .. إنك لاتعرف كم أوحشتنا يا (خالد) ، وكم نحن بحاجة إلى أن نلقى أنفسنا فى أحضانك .

ثم انقطعت المكالمة ، وأنا مازلت واقفا فى مكانى ، والسمَّاعة فى يدى . وقد تحولت إلى مايشبه التمثال ..

ولا أدرى أى شعور تملكنى فى هذه اللحظة ..

كان يجب أن أكون فى قمة فرحى وسعادتى ، فزوجتى وابنتى ما زالتا على قيد الحياة ، ولكن المفاجأة شلّتنى ، وجعلتنى عاجزًا عن التعبير عن مشاعرى تمامًا .

عن حقيقة مشاعرى .

* * *



١٢ ـ لن أنساك أبدا ..

كانت تتحرك أمامى بحيوية ونشاط لم أعهدهما فيها من قبل ، وهى تضع أمامى على المائدة ألوان الطعام المختلفة التى أعدّتها ، وأخذت أتابع حركتها فى صمت ، وأنا ما زلت واقعًا تحت تأثير حالة اللاوعى التى ألمت بى ، منذ اتصلت بى زوجتى هذا الصباح ، ولاحظت هى ذلك ، فقالت :

ــ ماذا بك؟ إنك لم تنطق بكلمة منذ جئت .

وبعد برهة من الصمت ، قلت لها بوجوم .

ــ زوجتى وابنتى .

قالت ، وهى ترمقنى بنظرة متسائلة :

ــ ما الذى جعلك تتذكرهما الآن؟

قلت لها ، وأنا أحدق فى المائدة ، دون أن أمي[illegible]ى من الأطعمة الموضوعة أمامى .

أنهما ما زالتا على قيد الحياة .

هوت بجسدها فوق المقعد المواجه للمائدة قائلة :

ـ ماذا ؟

قلت لها ، دون أن أرفع عينى عن المائدة .

ـ لقد اتصلت بى زوجتى هذا الصباح ، قبل أن أحضر إليك ، وأخبرتنى أنها ستحضر إلى (القاهرة) غداً .

سألتنى وقد خفت صوتها .

ـ ولكن .. كيف ؟ أعنى .. لقد قلت ...

قلت وأنا أقدّر حيرتها :

ـ نعم .. لقد تقطّعت كل الأسباب ، التى تجعلنى آمل فى بقائهما على قيد الحياة .. كل شىء كان يؤكد موتهما غرقًا .. وأنهما تحولتا إلى طعام للأسماك ، ومع ذلك فقد بقيت متعلقًا بأمل واحد ضئيل ، وهو أنه طالما لم أر جثتيهما بنفسى ، فربما .. ربما تكونان قد أفلتتا من الموت ، لكن هذا الأمل ظل يتضاءل شيئًا فشيئًا ، مع مرور الأيام والشهور والسنين ، حتى تلاشى تمامًا ، واستسلمت لمشيئة القدر ، ولكن هاهوذا الأمل الضئيل يتحول إلى حقيقة ، وهاهى ذى المعجزة تتحقق على نحو-لم أكن أتوقّعه إطلاقًا .

وبدا فى هذه اللحظة أننى قد تخلصت لأوّل مرة ، منذ أن تلقيت المكالمة التليفونية من الصدمة ، وحالة اللاوعى ، التى

سيطرت علىّ ، فانتفضت من فوق مقعدى ، وقد غمرتنى حالة من الفرح الهستيرى ، وأنا أقبض على ذراعى (وفاء) ، لأساعدها على النهوض من فوق المقعد ، لأدور بها فى أرجاء الغرفة قائلًا :

ـ إنهما أحياء .. أحياء يا (وفاء) .. أتتخيلين هذا ؟ .. لقد عاد القدر ليشملنى برحمته .. غداً سأرى زوجتى وابنتى مرة أخرى ، بعد أن ظننت أننى لن أراهما أبدًا .

ابتسمت من خلال عينين حزينتين ، قائلة :

ـ إننى سعيدة من أجلك .

بدت عبارتها ، فى هذه اللحظة ، وقد ردّتنى إلى صوابى ، فتوقّفت عن متابعة الدوران بها ، وأبعدت يدى عنها ، وأنا أنظر إليها فى دهشة .. لقد نسيتها .. نسيتها تمامًا .. منذ أن تلقيت هذه المكالمة ، وحتى حضورى إلى هنا ، وأنا لم أفكّر فيها لحظة واحدة .. لقد كان تفكيرى مشلولًا ، تحت تأثير المفاجأة التى كشفت ظهور ابنتى وزوجتى فى حياتى مرة أخرى .. وعندما استعاد عقلى وعيه ، لم أفكر إلا فيهما وحدهما ، ابنتى وزوجتى .. أما هى ، فلم أفكّر فيها مطلقًا ، حتى وأنا أقبض على ذراعيها ، وأدور بها فى أرجاء الغرفة .. كيف تسنّى لى أن أفعل ذلك ؟ وما الذى سيحدث بيننا بعدها ؟

ويبدو أنها لاحظت ما طرأ عليَّ من تغيير ، فقالت لى بهدوء :

ــ فيم تفكِّر ؟ لاتجعل أى شىء فى العالم يسرق منك سعادتك ، التى تعيشها الآن .

قلت لها :

ــ (وفاء) .. لن يتغير شىء بيننا .. أليس كذلك ؟

سألتنى قائلة :

ــ ألم أقل لك .. لاتجعل شيئًا يفسد عليك سعادتك ؟

قلت لها ، وكأننى لم أسمع ردها :

ــ ظهور زوجتى وابنتى فى حياتى مرة أخرى ، لن يُغيِّر شيئًا من مشاعرى نحوك ، وما زلت أحبك ، ومازلت أرغب فى الزواج منك .

قالت بهدوء :

ــ دعنا لانتحدث عن هذا الآن ، وهيا بنا نتناول الطعام ، الذى أعددته لك .

جلست إلى جوارها على المائدة واجمًا .. لقد أحسسْت فى هذه اللحظة بشىء يقلقل علىَّ سعادتى . فقد تحدثت فى تلك اللحظة عن الزواج بدافع الحماس . وإثبات صدق عاطفتى

نحوها ، وهى صادقة بالفعل ، فأنا لم أحب مخلوقة طوال حياتى كما أحببت (وفاء) ، وتلك حقيقة راسخة فى وجدانى ، لا أستطيع إنكارها . لكن كيف سيستقيم الوضع ، مع عودة ابنتى وزوجتى إلى حياتى مرة أخرى ؟.. هل سيمكننى أن أتزوجها مع عودتى إلى زوجتى ؟ هل أضحى بزوجتى العائدة ، وأطلِّقها ، لأكون خالصًا لها وحدها ؟.. هذا مستحيل !!.. هل أتزوجها مع احتفاظى بزوجتى الأولى ، ضاربًا عرض الحائط بكل شىء ؟ ولكن هذا سيكون بمثابة جرح غائر فى نفس زوجتى ، التى لابد أنها تعذبت كثيرًا طوال هذه السنين ، وليست بحاجة إلىَّ أن أزيد من عذابها ، كما أنها قد تطلب منى الطلاق ، عندما تعلم بالأمر ، فيتشتت شمل الأسرة من جديد .. هل أتزوجها سرًّا ، دون علم زوجتى ، أو أى مخلوق آخر بالأمر ؟.. ولكن السر فى هذه الأحوال لايمكن الاحتفاظ به طويلًا ، ولابد أنه سيأتى عليه يوم فينكشف ، خاصة بالنسبة لرجل معروف مثلى ، وفى تلك الحالة سيكون وقع الصدمة أشد على زوجتى ، وقد يدمِّر هذا العلاقة بينى وبينها من جهة ، وبينى وبين (وفاء) من جهة أخرى ، فيتحطم كل شىء .

قطعت علىَّ (وفاء) أفكارى الحائرة ، وهى ترى عدم إقبالى على تناول الطعام ، قائلة :

ـــ لماذا لا تأكل ؟

قلت لها ، وأنا أمد يدى إلى أحد الأطباق :

ـــ سأفعل

ولكن ما أن قربت الملعقة من فمى ، حتى أعدت ما بها من حساء إلى الوعاء مرة أخرى قائلًا :

ـــ يبدو أننى قد فقدت شهيتى للطعام .

قالت ، وهى ترمقنى بنظرة ثاقبة ، وكأنها تقرأ أفكارى :

ـــ أهذا بسبب سعادتك بعودة زوجتك وابنتك ، أم بسبب حيرتك بينهما وبينى ؟

نظرت إليها صامتًا ، دون أن أدرى ماذا أقول ، فى حين مدت هى يدها إلى أحد الأطباق ، لتتناول منه قطعة من لحم الدجاج ، قدمتها إلىَّ قائلة :

ـــ خذ هذه منى ، ودعك من أية أفكار أخرى ، فقد يكون هذا هو آخر طعام يجمع بيننا .. أريد أن أتذكرك وأنت مقبل على طعامى ، كتلك المرة التى تناولناه فيها معا فى تلك الحديقة .. أتذكر ؟.. أريد أن أتذكرك وتلك النظرة المرحة السعيدة تطلّ من عينيك ، لاتدعنى أرى فيهما مجالًا للقلق والحيرة ، فكل شىء سيعود على النحو الذى يُسعدك .

قلت ، وقد انتابنى الخوف ، لتلك النبرة فى صوتها :

ـــ (وفاء) .. لماذا تقولين ذلك ؟

قالت وهى تنزع قطعة من لحم الدجاج ، لتضعها فى فمى ، وقد اصطنعت ابتسامة على وجهها :

ـــ هيا تناول هذه ، وحدثنى قليلًا عن ابنتك وزوجتك ، فأنت لم تحدثنى عنهما من قبل .

ولكن ابتسامتها المصطنعة لم تستطع أن تخفى عنى أبدا .. نظرة الطفلة الشاردة ، التى جربت معنى الضياع ، وتشعر أنها مقبلة عليه مرة أخرى .. كانت هذه النظرة محفورة فى عينيها .. ولم يكن لشخص آخر أن يحسها سواى ..

* * *

عانقتهما بكل حرمان وعذاب الشهور التى فرّقت بينى وبينهما ..

نسيت كل شىء ، وتلاشى أمامى أى شىء ، فى تلك اللحظة التى جمعت بينى وبين زوجتى وابنتى ..

كانت الفرحة أكبر من أى وصف يمكن وصفها بها ..

وعدنا جميعًا إلى البيت ، الذى كان موحشًا دونهما .. عدنا وكأننا قد أفقنا من كابوس كبير شديد القسوة .. لقد بدا للمنزل مذاق آخر فى وجودهما ، وأضفت لمستهما

على الأشياء بداخله دفئًا طالما افتقدته ، منذ أن افترقنا ..

وتحدثت زوجتي قائلة :

ــ تحطّمت السفينة ، ووجدنا أنفسنا في مياه البحر ، نصارع الأمواج وقد تحول بعضنا إلى أشلاء ممزقة .. كان كل شيء يذهب إلى ضياع ، وتملكتني في هذه اللحظة حالة جنونية ، لايمكنني أن أفسرها لك .. كل ماسيطر على تفكيري ، وأنا أصارع أمواج البحر المتلاطمة ، هو البحث عن ابنتنا .. لم أفكّر للحظة واحدة في نفسي ، بل لم أفزع ويدي ترتطم وهي تشق طريقها في المياه بجثة غريق أو أشلاء غريق آخر .. كان هناك شيء واحد يدفعني إلى التصارع مع الموج ، ويجعلني أتشبث بالحياة ، وهو العثور على ابنتي ، وسط مظاهر تلك المأساة المروعة ، وكان الله رحيمًا بي ، فرأيتها تكاد تشرف على الغرق ، واستخدمت كل ما تعلّمته عن السباحة في إنقاذها ، والعوم بعيداً عن المكان الذي أخذت تتساقط فيه بعض البقع البترولية الملتهبة ، لتزيد من حجم المأساة ، وتحول مياه البحر إلى جحيم .. ظللت أسبح بيد واحدة ، وقد أمسكت ابنتي باليد الأخرى ، ولا أدري كم عدد الساعات التي ظللت أسبحها ، لكن ما أدريه هو أنني

لمحت قاربًا صغيرًا للصيد ، على بعد أمتار مني ، فأخذت ألوح له بيدي ، ثم انهارت مقاومتي ، فوجدت نفسي وقد غبت عن الوعي ، وعندما استرددت وعيي ، وجدت نفسي بين وجوه لا أعرفها ، وهم يتحدثون بلغة غريبة لا أفهمها ، ووجدتني عاجزة عن تذكر أي شيء ، فيما عدا أن هذه الطفلة البكماء ، التي تقف أمامي ، تمت لي بصلة ما .. واكتشفت أنني فقدت الذاكرة ، كما أن ابنتنا فقدت النطق ، نتيجة لهول ماتعرضنا له ، وقد حدث ذلك بالقرب من الشواطىء الإيطالية ، بعيداً عن مكان الحادث ، ولم يكن معنا بالطبع ما يثبت شخصيتنا ، فقد ضاع جواز السفر والنقود ، وكل ماينبئ عن حقيقة هويتنا ، وهكذا استسلمنا لعلاج طويل أنا وابنتنا ، في إحدى دور العلاج الخيرية الإيطالية ، حتى استردت ابنتي قدرتها على النطق ، واسترددت أنا بعدها ذاكرتي المفقودة ، وكان أول ما تذكرته هو أنت ، ووداعك الأخير لنا ، قبل أن نستقل تلك الباخرة المشئومة ، وما أن منّ علينا الله بنعمة الشفاء ، حتى سارعت بالاتصال بك وبالسفارة المصرية في (روما) ، التي تكرّمت بإعادتنا إلى (مصر) .

قلت ، وأنا أضع يدي على وجنتها :

ـ زوجتى الحبيبة .. لقد تعذّبت كثيرًا .
تناولت يدى لتقبلها قائلة :
ـ لابد أنك تعذّبت أيضا ، فأنا أعرف مقدار حبك لنا .
تقدّمت نحو ابنتى ، التى كانت تقف فى أحد أركان الصالة ، وهى تعبث بإحدى لعبها ، التى تركتها لأحملها بين يدىّ ، قائلا لزوجتى :
ـ سأعمل على تعويضكما عن كل ما لقيتماه من عذاب وألم .
ثم اقتربت من زوجتى ، أضمها إلى صدرى هى وابنتى ، وأنا أجهش بالبكاء قائلا :
ـ لاتتصوّرى كم لاقيت من جراء فقدى لكما ، لقد كنت أعرف دائمًا أننى أحبكما بشدة ، ولكن عندما أخبرونى بموتكما أحسست بأننى قد فقدت جزءا عزيزًا من نفسى إلى الأبد ، وفى تلك اللحظة أيقنت بأننى كنت أحبكما بأكثر مما تخيلت ، حتى أن الحياة نفسها فقدت معناها لدى .
وأنزلت ابنتى ، وأنا أضع يدى على كتفى زوجتى ، ناظرًا إلى عينيها بعمق وصدق ، وأنا أقول :
ـ ولكن سامحينى يا (سلوى) ، فقد جاء علىّ وقت لم أعد

أتألم فيه من أجلكما بالقدر الكافى .. جاء على وقت أثقل على فيه الحزن ، وأحسست أننى بحاجة إلى التغلّب على المعاناة ، وممارسة حياتى من جديد ، ولكن صدقينى لم يجعلنى هذا أنساكما أبدا .
أسرعت زوجتى تضع يدها على فمى ، تمنعنى من مواصلة الحديث ، وهى تقول بصوت هادئ حنون :
ـ أدرك هذا .. لاداعى لأن تسترسل فى هذا الحديث ، فقد قلت لك من قبل إننى أعرف مقدار حبك لنا ، ولست بحاجة لتأكيده ، أو الاعتذار من أجله ، عن أى شىء ، المهم أننا الآن هنا معاً .. لقد عادت أسرتنا ليلتئم شملها من جديد .
لقد حالت (سلوى) بينى وبين التحدّث عن كل ما أردت قوله ، فى تلك اللحظة العاطفية الدافقة ، التى جمعت بيننا . وربما لولا منعها لى ، لاسترسلت فى الاعتراف بكل شىء ، دون أن أعبأ بإشارات التحذير ، التى نبهنى إليها عقلى ، ولم أكن أدرى أية عاقبة يمكن أن يأتى بها ، اعترافى هذا ، لو استرسلت فيما منعتنى زوجتى من التحدث عنه ..
لم أكن أدرى حقًا .

* * *

أسرعت بفتح باب السيارة الخلفى ، حيث اندفعت ابنتى داخلها ، فى حين جلست زوجتى فى المقعد الأمامى إلى جوارى ، وهى تبتسم قائلة :

ـــ لا أدرى لماذا تصرّ على تلك النزهات المتكررة ؟

قلت لها ، وأنا أنظف زجاج السيارة الأمامى :

ـــ على أن أعوّض الشهور الطويلة ، التى لم نتنزه فيها معًا .

قالت بهدوئها المعهود :

ـــ أننى أفضل دفء المنزل ، عن أى شىء آخر .

قلت لها مبتسمًا :

ـــ ولكنى لا أعتقد أن ابنتك توافقك على هذا .. أليس كذلك يا (حنان) ؟

قالت بشقاوتها المعهودة :

ـــ بالطبع يا أبى .. ليتنا نذهب إلى أماكن مختلفة كل يوم .

قلت لزوجتى ضاحكًا :

ـــ ألم أقل لك ؟

وضحكت زوجتى بدورها قائلة :

ـــ يبدو أنه لامناص من الاستسلام لرأى الأغلبية .

وبينما كنت أهم بركوب سيارتى ، استعدادًا لمغادرة المكان ، إذا بى ألمحها .

كانت (وفاء) واقفة إلى جوار إحدى الأشجار ، تراقبنا فى صمت ..

وأحسست بقلبى يخفق بشدة ، ولاحظت (سلوى) اضطرابى ، وتردّدى فى الركوب ، فقالت لى :

ـــ ألن تركب ؟

قلت لها سريعًا :

ـــ لقد نسيت أننى لا أحمل معى سجائر .. سأشترى علبة سجائر من المتجر الصغير فى نهاية الشارع .

قالت لى :

ـــ يمكنك أن تشتريها من أى متجر يقابلك فى الطريق .

قلت لها ، وأنا أعود فأغلق السيارة :

ـــ لن يستغرق الأمر سوى ثوان قليلة .

وتركتها وأنا اتجه إلى الشارع الخلفى ، مشيرًا إلى (وفاء) ، التى اقتربت منى قائلة برقة :

ـــ إن لك زوجة جميلة وابنة رائعة .

قلت لها :

ـــ (وفاء) إننى ....

لمحت دمعة فى عينيها ، وهى تقاطعنى قائلة :

ـ أعرف ماذا تريد أن تقول ، وأنا أيضًا لم أستطع التوقف عن حبك .. لقد صرت تحيا فى دمى يا (خالد) ، ولكننى مضطرة للانسحاب من حياتك ، من أجل أسرتك ، التى عادت إليك ، ومن أجل سعادتك

قلت ، وفى صوتى رجاء :

ـ إن عاطفتى نحوهما لم تؤثر فى حبى لك ، وإذا فكرت فى الابتعاد عنى ، فأنت تسلميننى لعذاب آخر ، وحرمان لا أطيقه .. إننى بحاجة إليكم جميعًا فى حياتى .

قالت ، وهى تمسح الدمعة التى سالت فوق وجنتيها :

ـ لا يمكن أن تحصل على كل السعادة التى تتمناها .. علينا ألا نكون أنانيين ، وأن نفكر فى الآخرين كما نفكر فى أنفسنا .. فكر فى زوجتك وابنتك .. فكر فى وقع الأمر عليهما .. إنهما لايستحقان منا أن نؤذى مشاعرهما .

قلت متوسلاً :

ـ ولماذا لا تفكرين فىَّ ؟ إذا كانتا جزءًا من نفسى ووجدانى . فأنت أيضا جزء من نفسى ووجدانى . ولا أستطيع التخلى عنك

قالت بهدوء :

ـ الزمن سيساعدك على تجاوز لوعة الحرمان والفراق ، كما فعل معك . من قبل ، حينما فقدت أسرتك .

قلت لها :

ـ وأنت ؟.. ألا تفكرين فى نفسك لحظة واحدة ، إذا كنت أنا سأعود لزوجتى وابنتى ، لأنسى معهما مرارة الفراق ، فما الذى تبقى لك أنت ، بعد أن فقدت كل شىء ؟

ابتسمت فى مرارة قائلة :

ـ تبقت لى ذكرياتى معك .. ذكرى الحب القصير فى عمر الزمن ، الكبير فى صدقه وعمق مشاعره .. تبقى شعورى بالسعادة كلما تخيلتك سعيدًا بين أحضان أسرتك الرائعة .

حاولت أن أقول شيئًا آخر ، ولكنها منعتنى من الكلام قائلة :

ـ هيا أسرع اليهما قبل أن يقلقا عليك : فهما ينتظرانك فى السيارة .

استمر شريط ذكرياتى معها يدور فى ذاكرتى ..

تلك القصاصة التى أرسلتها لى لتخبرنى برحيلها . بعد أن تركت عقد المشاركة فى المزرعة مع (مدكور) . ولقائى الأخير

بها فى المطار قبل رحيلها ، وأنا أتشبث بيدها ، عبر الحاجز الحديدى الذى يفصل بيننا ..

تذكَّرت ذلك الطعام الذى تناولناه معًا فى تلك الحديقة ، أسفل الشجرة ، وكلمات الحب التى دارت بيننا ..

تذكرت كلماتها ، التى قالتها فى المزرعة « وأنى أخاف أن أفقدها .. لقد قاسيت كثيرًا بسبب فقدانى لمن أحبهم ، وأخشى أن يتكَّرر هذا معك مرة أخرى ، فلم أعد أقوى على تحمل المزيد من الألم فى حياتى » .

وعاد صوتها يتردّد فى سمعى ، وهى تقول لى فى المطار :

ــ لقد منحنا القدر كل ما اشتهيناه من مشاعر وأحاسيس رائعة ، وعلينا الآن أن نسدِّد ثمن هذه السعادة ، وأن نتقبل ما فرضه علينا القدر من تضحيات .

وأفقت من ذكرياتى على صوت ، ابنتى ، وهى تقول لى :

ــ أبى .. لماذا لاتشاركنا الضحك ؟ الا تعجبك المسرحية ؟

ونظرت إلىَّ زوجتى بدورها ، قائلة :

ــ (خالد) .. أهناك ما يشغلك ؟.. إنك تبدو شاردًا .

قلت لها ، وأنا أحيط كتفها بيدى ، وأضم ابنتى إلى

صدرى باليد الأخرى ، لأزيدهما التصاقًا بى ، وكأنى أستعين بضمهما على مقاومة آلام الفراق وحنين الذكرى .

لا شىء .. لا شىء .. إنها مسرحية مرحة بالفعل .

واصطنعت ضحكة مفتعلة ، لكى أطمئنهما على مشاركتى لهما فى المشاهدة ، ولكننى عدت أسمع صوتها يرن فى أذنى ، وهى تقول :

ــ وداعًا يا (خالد) .. وداعًا يا حبيبى .. ربما جمع بيننا القدر ذات يوم ، وربما حال دون لقائنا حتى نفارق هذه الحياة ، ولكننى لن أنساك أبدًا وعدت أصطنع ضحكة مفتعلة ، ولكننى لم أقو على مقاومة دمعة انحدرت من عينى ، تحمل اسمها ..

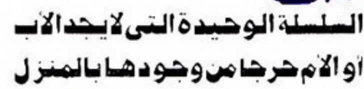
اسم (وفاء) .

* * *

(تمت بحمد الله)

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى





المؤلف



أ . شريف شوق

لن أنساك

لقد جمع القدر بين خالد ووفاء ليعيشا معا أسمى معانى الحب .. ثم عاد ففرقهما بعد لقاء .. وقد يعود فيجمع بينهما من جديد فى لقاء آخر أو يحكم عليهما بالفراق الأبدى .. لكن الحب الذى جمع بينهما سيبقى دائما أقوى من النسيان .



الثمن فى م...
ومايعادله بالدولار الأمري... الدول العربية والعالم